أوهام شرقية

قصص قصيرة

لنا عبد الرحمن

الكتاب : أوهام شرقية

الكاتبة : لنا عبد الرحمن

الطبعة : ٢٠١٦

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

عبد الرحمن، لنا

أوهام شرقية – لنا عبد الرحمن – الجيزة – وكالة الصحافة العربية

.. ص ، .. سم

تدمك: ٣- ٦١ – ٥٧٧٢ – ٩٧٧

أ. العنوان رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٥٧٣٤

أوهام شرقية

قصص قصيرة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء إلى..

مصطفى المصرى..

وطلال المصرى..

محمد المصرى..

الذي رحل كلمة وداع..

ثلاث ساعات قبل الرحيل

كان على أن أجده.. لم يبق أمامي سوى ساعات قبل السفر، أين أبحث عنه؟ وليس عنده هاتف في منزله، ويرفض حمل الهاتف النقال، بحجة رفضه للعولمة.

رحت أستعرض أسماء أصدقائه الذين التقيت بهم، قد يعرفون مكانه، وقفت على الرصيف، أمسكت بأجندة الأرقام، طلبت رقم فؤاد، لأسأله عن يوسف، أكد أنه لم يره منذ يومين، فكرت الاتصال بجمال، لكنني خجلت، فقد كنت أحس بالضآلة أمامه بعد كلماته الأخيرة معي، واتهامه لي بأنني تخليت عن يوسف، لأني كغيري ألهث وراء المادة.. سأتصل بنادية، لكن هاتفها مغلق، وصلت إلى نهاية الشارع وأنا أفكر كيف أجده؟

قررتُ إيقاف "تاكسي" والتوجه إلى شارع الحمراء، على أن أودعه أيضاً، وأن أجلس في مقهى "المودكا"، رغم خلوه من الزبائن في هذا الوقت.. ما إن دلفت داخل السيارة حتى تعالى رنين هاتفي الخلوي على نغمة موسيقى "حبيبتي"، لينقل لي صوت فؤاد قائلاً: "ليلى يوسف قد يكون في ساحة الشهداء، في الاعتصام".

لم أتردد لثوان، بل طلبت من السائق أن ينعطف بي إلى ساحة الشهداء، وسوف أضاعف له الأجر.

"لا بأس"، تمتم السائق وهو يحدثني عن غلاء البنزين والأزمة الاقتصادية في البلاد.. يتكلم ويتكلم، فيما كنتُ أفكر بالطائرة التي ستنطلق في العاشرة مساءً لتنقلني إلى بلاد المانش. سأهجر شوارع بيروت العتيقة ومقاهيها التي تحتل أرصفة الشوارع، كي أمشي في الهارد بارك، وأبحث عن مقهى يقدم القهوة العربية.

– أين أبحث عنك يا يوسف؟

كيف أجدك وأنا لا أملك لك عنواناً سوى اسم شارع أخبرتني أنك تسكنه، حين حدثتني عن جارتك الساحرة "أم علي" التي يقصدها الناس من مختلف البلدان بحثاً عن حلول سحرية لأمراضهم الوهمية، حين وصلت إلى "ساحة الشهداء" وجدت جماعات من شباب وشابات معظمهم يضع الكوفية الفلسطينية، رغم انتماءاتهم المختلفة، كل شخص من الموجودين كان يقف مع مجموعة.. أما أنا فكنت أسير وحدي بمحاذاة كل جماعة، أعبرها وأتجه نحو مجموعة أخرى، من بعيد لمحت وجه "لارا" تقف بين جماعة من الصحفيين وبعض الطلبة، بدا عليها الانهماك في الحديث والجميع يستمع إليها، أحسستُ بارتباك شديد، وخشيت أن تلمحني، لأنها تدرك تماماً أنني لم أشارك في أي اعتصام أومظاهرة طوال حياتي، وأنها

رغم هويتها اللبنانية أجدها منشغلة مع القضية الفلسطينية وتعبر بانفعال عن كل ما يجول في داخلها من آراء.. أما أنا أغلي في الداخل، بلا أي حدث يفرّغ ما يفور في أغواري السحيقة.

تحاشيت أن تلمحني "لارا" لأنها ستدرك أنني قصدت المكان بحثاً عن يوسف.. تراجعت، عدت إلى أطراف الشارع، مسيرتي بين الجموع لن تجدي نفعاً، وكأنني أيقنت أن يوسف غير موجود في هذا المكان، إذ لو كان موجودًا لابد أن يعلو صوته في هتافات متلاحقة، أوكان ليلقي محاضرة على كل هؤلاء الطلبة.

– رغبة حادة في البكاء انتابتنى، هل الله تخلى عني في رغبتي لقاء يوسف للمرة الأخيرة؟ سمعتُ أصواتاً تهمس في أذني بأنني "أنانية" أطمع في كل شيء.. الوقت يمضى، وعلى أن أكون في البيت عند السابعة، كادت دموعي تنحدر، حائرة أين أذهب للبحث عنه؟!

لو مضت هذه الساعات بدون أن ألقاه فلن ألتقيه لسنوات، أحتاج لرؤيته، أحتاج سماع كلماته للمرة الأخيرة، يتلو على تعاليمه وإن كانت وهماً.

أعرف أنه يسكن في أحد شوارع الجامعة العربية، لكن في أي شارع تحديدًا؟ وكيف أجد المنزل وليس لدي عنوان؟ من أسأل عن "يوسف العربى" ؟ هل هذا اسمه الحقيقي الذي يعرفه به الجيران أم

أنه اسم وهمي نعرفه به نحن؟ أتراه مثل والدي يغير اسمه كلما انتقلنا إلى سكن جديد مبررًا ذلك بعبارة "ضرورات أمنية" ؟! قررت التوجه إلى شارع الجامعة العربية مهما كانت النتيجة، أوقفت سيارة تاكسي وصعدت فيها.. كانت امرأة عجوز تجلس في المقعد الأمامي إلى جانب السائق الذي كان يحدثها أيضاً عن غلاء الأسعار وكيف أن الغرباء خربوا البلد، كانا يستعيدان أمجاد لبنان في السبعينات أيام الماضي السعيد، كنت أنصت إليهما، وتراودني رغبة في سؤال المرأة العجوز التي بدت لي في غاية الأناقة والحزن أترانا نحس بالحب حينما نصل إلى هذا العمر، أم أن الشيخوخة تقتل كل المشاعر، فلا يبقى لنا سوى الإحساس بالعجز والمرض وانتظار النهاية ؟

ابتلعت سؤالي، ورحت أتابع معهما أخبار لبنان القديم، حينما وصلنا إلى شارع الجامعة العربية، خمنت معالم الشارع الذي سار فيه يوسف، يومها كنا معاً، وافترقنا عند ذاك المنعطف وهو يشير لي بيده قائلاً: "بيتي في الشارع الخلفي سوف أتمشي قليلاً، هل تأتين معي" رفضت باستخفاف، يالحماقتي..! ليتني سرت معه ذاك النهار، أما كنتُ تخلصت من ضياعي وبحثي المجنون عنه الآن ؟

واصلت السير، ثم توقفت عند دكان صغير، بدا لي قديماً وصاحبه طاعن في السن، تمتمت في سري "إذن لابد أنه يعرف جميع سكان المنطقة"، لملمت بعض ألواح الشوكولا لشرائها،

بهدف السؤال، حين دفعت ثمنها وجدت نفسي أختلق حكاية وهمية عن فشل خطوبتي الذي دفعني للبحث عن بيت الساحرة "أم على".

همست لنفسي أنني إن وجدت بيت "أم علي" سوف أجد منزل يوسف.. أستمع إلى الرجل.. وأكد أنه لا يعرف أم علي، لكنه سمع عنها، وأشار لي أن أتجه يميناً ثم يسارًا، ثم أسأل في تجمع البنايات الحديثة الموجودة في آخر الشارع.. حينما وصلت حيثما أرشدني سألت أحد البوابين، فأكد لي خلو البنايات من أي ساحرة أو بصارة أو قارئة مندل، ونصحني بالسير في شارع آخر.

– مضت علي ساعة من الوقت، وأنا أسير وأسأل وبلا فائدة، حتى أنني كدت أنسى أمر يوسف وانشغلت فعلاً في إيجاد بيت "أم علي" علها تستبصر لي أين يكون يوسف في هذه اللحظة ؟!

دفعني الإرهاق للتوقف أمام الصيدلية لأشتري حبوب البانادول، كنت قد بدأت أشعر بنوبة الصداع النصفي الذي طالما ألمّ بي عندما تضيق الدنيا في وجهي طلبت من الصيدلي كوباً من الماء لأبتلع البانادول، لكنه ابتسم معتذرًا بأن مياه الشرب مقطوعة منذ ساعتين، ومن الأفضل لي شراء زجاجة مياه معدنية من الدكان المجاور.. خرجت من الصيدلية وأنا أمسك النقود في يدى، لا أعرف لمَ خطر لي التوقف لأحصي ما تبقي معي من مال، فجأة، في

لمح البصر، يد قاسية خطفت النقود من يدي وهربت، صرختُ، وأنا أحاول اللحاق به "حرامي.. حرامي"، لكن السارق الصغير، النحيف اختفي عن نظري ولم أبصر إلا الدرب الذي سلكه.. ركضت لأمتار قليلة محاولةً تتبعه، لقد عبر الشارع وابتعد، قررت عبور الشارع واللحاق به لكن صوت زمامير السيارات علا في رأسي مدوياً، وجدت موكباً من السيارات الفاخرة تتوسطهما سيارة سوداء ذات زجاج سميك وعازل، إنه موكب لشخصية مهمة، إذن يتعذر عليّ عبور الشارع إلا بعد مرور الموكب المجهول.. أحسست بالخذلان لأنني أيقنت أن السارق ابتعد تماماً وسيتعذر على إيجاده.

الحمد لله.. إن كيس النقود لم يسرق بالكامل، ما سرق هو النقود التي أخرجتها، لكنها ليست قليلة، فحصت حقيبتي، وجدت ورقات مالية قليلة مازالت موجودة.. عدت أسيرا كالمنومة إلى دكان لأشتري زجاجة مياه معدنية، وإحساس بالجفاف يكوي حلقي وقلبي.. وأنا أشتري المياه، عدت للسؤال عن بيت أم علي، لكن البائعة أجابتني بتجهم شديد بأنها ليست من سكان المنطقة.

– خطواتي تتتالى بغير هدف وأنا أفكر عمن أسأل، عن بيت يوسف، أم بيت أم علي ؟

غلبني إعياء شديد، وإحساس بالعجز، تجاوزتني سيارة حمراء صغيرة تسير بسرعة مرعبة، توقفت على بعد أمتارٍ قليلة، ثم نزلت

منها فتاة شابة تحمل كيساً أسود كبيراً، ألقته في الحاوية ثم صعدت إلى السيارة، لتنطلق بالسرعة نفسها.

تابعت السير، أجر خطواتي الثقيلة، بعد أن سقطت عيناي على حانوت للأقمشة قررت التوقف لسؤاله، لدى عبوري حاوية القمامة توقفت، لإلقاء قنينة الماء الفارغة، سمعت بكاء حادا، ينبعث من الحاوية، ورأس طفل حديث الولادة يمتد من ذات الكيس الأسود التي ألقت به الفتاة منذ قليل، ارتجفت أطرافي، وكأنني المسؤول عن إلقاء الطفل، أسرعت بالسير قبل أن يشاهدني أحد ويتهمني بالأمر.

حينما توقفت عند زاوية حانوت الأقمشة ترددت في الدخول، وخطر لي العودة إلى البيت، عدت باندفاع وسألت البائع عن "بيت أم علي" فأجابني بترحيب وابتسامة عريضة بأنها تسكن في المبني المجاور، ثم نادى عليّ شاب صغير ليرشدني إلى المنزل، سرت مع الشاب بضعة خطوات وانتظرت ابتعاده لأصعد وحدي، لكني وجدته يضرب على الإنترفون، ليخبر المرأة التي أجابته بأن هناك زبونة قادمة من السفر تحتاج لقاء "أم علي"، فُتح الباب الحديدي المغلق، دخلنا ثم دلف الشاب معي إلى المصعد، وضغط على زر الطابق الثالث، خطر لي سؤاله عن بيت يوسف، أو إن كان يعرفه، لكنه راح يسرد لي عجائب "أم علي" وكراماتها الغريبة، وقفت أمام باب الشقة

الخشبي الكبير لثوان معدودة قبل أن يفتح الباب، لأجد نفسي أمام امرأة ضخمة الجثة، أشارت عليّ بالدخول.

وجدت نفسي على بوابة صالون فاخر من الإستيل، حيث جلس في الزاوية رجل خمسيني يضع بجانبه كيساً أسود كبيرا، يتحرك من داخله حيوان حي، وفي المقعد الواسع جلست امرأتان إحداهما شابة في الثلاثين، أما الأخرى فقد تجاوزت الستين، اقتربت للجلوس في المقعد المجاور من السيدتين.

رحت أتأمل المكان، أشم رائحة البخور النفاذة، أشياء غريبة موضوعة على الأرفف، سلاحف ميتة، أسماك متحجرة، طيور محنطة، أصداف مختلفة الحجم، أغصان يابسة، زجاجات شفافة مليئة برمال حمراء وصفراء، وكأن الأشياء تتحرك، والأرواح تسبح في المكان، وأنا منزوية مع نفسي أجهل السبب الحقيقي لوجودي في هذا المكان، بدا لي "يوسف" في تلك اللحظات كائناً هلامياً لا يستحق كل هذا العناء.

اقتطع تناسل أفكاري صوت المرأة العجوز وهي تشكو للمرأة الشابة حكاية ترملها، وتربيتها لابنها الوحيد الذي تزوج وصار يهددها بإيداعها داراً للمسنين إن هي تدخلت في حياة زوجته، لذا قصدت "أم علي" لتعمل لها حجابا للعطف والقبول تحنن به قلب الابن القاسي.

بدورها راحت المرأة الشابة تشكو للسيدة المسنة كيف أنها تزوجت من سبعة أعوام، ولم ترزق بالأطفال، وقد طافت عيادات الأطباء في باريس ولندن، بلا نتيجة وبدأت تقصد المشايخ بعد يأسها من حدوث الحمل.

تذكرتُ حينها الطفل الصغير الملقى في حاوية القمامة، ماذا حدث له الآن يا ترى بعد مرور ساعة من الوقت؟ أتراه مات؟ أم أنه مازال حياً؟ هل أنقذه أحد؟ يا لتخاذلي لماذا لم أتوقف عند أقرب مركز للشرطة وأخبرهم بما رأيت؟

– لو أن يوسف عبر المكان وسمع صراخ الطفل أكان منقذه وليحدث بعدها ما يحدث؟

ارتفع صوت المرأة الخمسينية وهي توجه الحديث لي قائلة:

وأنت يا ابنتي ما قصتك ؟

رحت أردد بلا وعي: "الطفل.. هناك في حاوية القمامة يجب أن نخرجه .. لا لا يمكن".

تمتمت المرأة العجوز للصبية وهي تضرب كفاً بكف..

مسكينة لابد أنها ممسوسة.

ظهرت الخادمة التي فتحت لي الباب، استدعت الرجل، الذي غاب هو وكيسه ليخرج بعد عدة دقائق ويغادر المكان من غير الكيس.

عادت الخادمة واستدعت المرأة العجوز، فبقيت وحدي مع المرأة الشابة التي بدت منكمشة وهي تحاول ألا تنظر نحوي، لم تتأخر المرأة العجوز أكثر من عدة دقائق، لتخرج حاملة كيساً صغيراً لا يظهر ما بداخله، عادت الخادمة لتستدعي المرأة الشابة، وتبتسم لي لتطمئنني أن دوري هو التالي، وجدت نفسي أقف فجأة وأفكر في مغادرة هذا المكان والصعود إلى الطابق الرابع للبحث عن شقة يوسف، لكن الخادمة بجثتها الضخمة، استدعتني للدخول إلى غرفة "أم علي" سرت عدة خطوات لأجد نفسي وجهاً لوجه أمام سيدة في الخمسين أوأكثر، ممتلئة الجسم تضع منديلاً على رأسها، وجهها خال من أي نوع من الأصباغ، لكن بشرتها مشدودة وتلمع ببريق من كثرة العناية والاهتمام.

أشارت على بالجلوس وهي تبتسم لي بود، وتتمتم بكلمات وأدعية لم أفهمها كلها، عادت الخادمة للظهور لتقدم لي كأساً من العصير، خشيت أن ألمسه، لكني وجدت أم علي تحثني على شربه، مؤكدة أنه ليس علي أن أخاف أبداً، أحسستُ بالاضطراب وكأنها قرأت ما

– أفكر فيه، أتراها تعرف أيضاً أنني أتيت بحثاً عن يوسف؟

– ما حكايتك يا بنتي؟

تعالى صوت أم علي واثقاً مشدداً على كلمة "حكاية" "حكايتي"، أي حكاية وهمية أختلقها في ثوان؟! هناك "خطيب سأسافر إليه ورجل آخر أحبه، وهناك.. وهناك" لا أدري ماذا قلت تحديداً، لكنها كانت تستمع إلى باهتمام، ورغم ذلك أحسست أنها لا تصدقني، ثم فجأة نادت خادمتها همست في أذنها عدة كلمات، لتعود ومعها زجاجة من الماء ومبخرة مشتعلة، راحت أم علي تقرأ وتهمس وتتمتم، لتطلب مني في النهاية أن أغتسل بهذا الماء ثم ألقيه في مكان طاهر، ثم أشارت عليّ بالانصراف.

خرجت من غرفتها، وبيدي زجاجة الماء، سرت نحو الباب الخارجي، وجدتُ الخادمة تقف أمام الباب وتطلب مني مبلغ عشرين دولاراً، فتحت حقيبتي أبحث عن النقود لم أكن أملك إلا أجرة السيارة.. تذكرت حادثة السرقة وهززت رأسي نفياً بأنني لا أملك مالا الآن، وضعت الخادمة يدها على الباب مؤكدة أنني لن أخرج من هنا إن لم أدفع.. لكن عليّ المغادرة، عليّ اللحاق بطائرتي، اقترب موعد الرحيل، وضعتُ يدي على رقبتي، تلمست السلسلة الذهبية التي تضم خارطة فلسطين، تلك التي أهداني إياها يوسف في عيد ميلادي الأخير، خلعتها وأنا أسلمها للخادمة، وأتمتم "خذي هذه لا أملك سواها". خرجت من البناية، وأنا أستعرض مامر بي، أوقفت أول سيارة تاكسي وأنا أردد بخيبة "شارع المطار".

٢٠٠٢/٩/٤

امرأتان

"لا يمكن للإنسان أبدا أن يدرك ماذا عليه أن يفعل، لأنه لا يملك إلا حياة واحدة، لا يسعه مقارنتها بحيوات سابقة ولا إصلاحها في حيوات لاحقة.. كل شيء نعيشه دفعة واحدة..".

"ميلان كونديرا"

المرأة (١)

جاء إليها.. إنها تعرف ما يريد هذه الليلة.. همس باسم الدلع الذي اعتاد أن يناديها به كلما زحفت غرائزه.. وضع يديه على جسدها، حاول معانقتها، كانت باردة جداً، لا تحس بأي رغبة، فقط تحس أنها وعاء تفريغ لا أكثر.

. سألته: ماذا تريد؟

. أجاب بثقة بشعة: أريدكِ

ابتسمت بسخرية، ثم خلعت ملابسها وتمددت عارية بقربة.. لم يتكلم، سقط بثقل جسده فوقها، لم تستغرق العملية أكثر من

دقائق معدودة، أحست بعدها بشدة القرف، بالرغبة في التقيؤ.. قامت إلى الحمام سريعاً اغتسلت.. لا تطيق إبقاء أي شيء منه داخلها، انهمرت الدموع تساقطت على وجهها، حاولت ألا تبكي ألا تحزن، ألا تتمنى.. حين خرجت من الحمام، كان يشاهد مسلسلا فكاهياً ويأكل حبات الفستق.

– هل تعدين العشاء؟

تفوه بهذه الكلمات، ثم عاد لمتابعة المسلسل، نظر إليها من جديد لاحظ شعرها المبلل فقال:

– لماذا تسرعين بالاستحمام، ربما أحتاجك مرة أخرى، أريد طفلاً ألا تفهمين؟

رمقته بنظرة ساخرة، واصل حديثه:

– لِمَ أنتِ هنا إن كنت لاترغبين في إنجاب الأطفال. أجابت بلا مبالاة.

– ليس الآن: قال باستفزاز محاولاً إثارتها:

– إذن سأتزوج بأخرى وأحضرها لتعيش معك في هذا البيت، وستنجب الأطفال لي وأنتِ تموتين من القهر والذل. صرخت في وجهه:

– وهل تظنني سأرضي بهذه الحياة؟

– سأجبركِ على الرضوخ، ليس لديكِ أحد تعتمدين عليه، كبرياؤك وشموخك فارغ، كم أرغب بسحق هذا الكبرياء تحت قدمى، لاشيء سيكسر رأسك مثل قدوم ضرة لك.

– سأهرب منك، لن أبقى معك.

سأحضركِ بالقوة، أنسيتِ أن القانون لايسامح الزوجة الفارة ويعتبرها عاقة لزوجها.

ركض ذهنها إلى أشهر سابقة حين لجأت إلى المحكمة لتطلب الطلاق، تذكرت أسئلة القاضى، حين مثلت أمامه هي وهو:

" هل يغطي مصاريفك ومصاريف المنزل"؟

أجابت: نعم، لكن ليس هذا كل شيء، إنه يضربني و... و... و...

– لكن لا أرى على وجهك أي آثار للضرب.

– إنه يحتقرني، ويعذبني، ويسيء إلى إنسانيتي.

– هيا عودي مع زوجك إلى منزلكما، واقنعي بحياتك يا امرأة. ثم أشار إلى زوجها، وهو يبتسم أن يأخذها معه ويذهبا، بعد هذه الحادثة لم تفكر في اللجوء إلى المحكمة مرة أخرى.

– لا تقفي هكذا مثل المومياء، جهزي لي الطعام.

– تأملته للحظات ثم صرخت:

– لِمَ لا تطلقني، أنا أكره الحياة معك.

– لستُ بهذا الغباء، لم أمل منكِ بعد، دمية جميلة ألهو بها وقتما أريد، برودك واستسلامك، ثم ثورتك وصراخك مصدر سلوى لي، كلما رأيت عجزك عن إيجاد حل سوى الرضوخ للحياة معي والاستسلام الكامل لي أحس بمتعة كبيرة، كيف كنتُ سألهو لو كنتِ قانعة راضية بحياتك؟ سأجدك مملة، أما الآن فأجد لذة فيك.

طافت بمخيلتها صورة أخيها البعيد الذي هاجر وتركها مع هذا الزوج، أقاربها الذين عمل زوجها على بتر علاقتها معهم، لإبقائها في دائرة مجتمعة فقط، ثم تأكدت من عجزها أكثر حين استعرضت في مخيلتها صور صديقاتها اللواتي تابعن دراستهن الجامعية، وحصلن على وظائف مرموقة.

أما هي فقد اكتفت بدراسة العام الجامعي الأول في قسم "علم النفس"، ثم منعها من الدراسة، لأنها يجب أن تهتم بالبيت، وأن تراعي شؤونه ومتطلباته، ومنذ ذلك الحين هجرت، الكتب، ودخلت عالم المطبخ والأطعمة، وأدوات التنظيف. نظرت إليه، إلى أوداجه المنتفخة من الغضب، إلى أذنيه الحمراوين، إلى عينيه اللتين تقدحان شرراً، تأملت إحساسه الذي يجبره على تنفيس ضالته بسحقها وتدمير شخصيتها، اعتادت هذا النوع من الكلام والحوار، ما من جديد، لا داعي للاستمرار في حوار أخرس، جمعت صحون الفاكهة والفستق الموضوعة أمامه ثم اتجهت بها إلى المطبخ لإعداد العشاء.

المرأة (٢)

قررت كتابته، ذلك هو السبيل الوحيد لنسيانه.. أرادت محوه وتفريغ كيانه من داخلها بإسقاطه عبر حبال كلمات تملأ سطورها.. ستوقف مدة على أرض القلب، لم تعد تحتمل مزيداً من الملح.

. غداً سيتصل.

غداً موعد أشواقه إليها، وأحلامها به، لكن عليها ألا تلقاه.. ألا تنصت لسمفونية العشق التي تنساب بينهما لماذا هي منجذبة إليه كل هذا الانجذاب السحري؟ هل لأن لقاءاتهما دائما في جدول المستحيل، أم لأن قصتهما منذ فجرها موشومة بالقدر؟

لا.. إنها رحلة وجع آخر، وماذا تنتظر من الوجع غير الوجع؟!

وحده اخترق حزنها، وحدتها، قلمها، تلك العناصر التي منها جبلت أشعرها بالحياة، وأنها تستطيع أن تأخذ الحب من جديد.

همست روحها: إنه قدرك.

. لكن أنا، لن أكون له، سأفعل بنفسي شراً إن بقيت معه.

قال لها مرة:

. لِمَ من بقية نساء الأرض أحببتك أنتِ؟ هل لأن دربك هاوية؟ وكيف ألقاكِ والمستحيل طريقكِ؟

أجابته بتردد: انس الغد نحن اليوم معاً. قال: عليّ أن أنسى أننا لن نحيا يوماً معاً، ولن تكون بيننا أحلام مشتركة، أو تفاهات مشتركة وسنبقى كما نحن نجدِّفُ نحو اللاوصول.

كانت تحقن روحها بمخدر الصمت، تمنعها من الإحساس بقلق الغد، لكن حوار ذلك اليوم أيقظ كل ما في الداخل: عوالم.. أشخاص.. عوائق تحول بينهما.. من أين لهما القوة على التخطي والعبور؟

صرخت أمام روحها: نحن بلا أحلام، هذا الحب سيشيخ، ويهرم ويموت قبل الأوان، لن يرى الشمس، سيضعف، ويسقط كسيحا تحت أرجل الوقت، ليحيا شاباً في قفص الصدر خير من أن يموت مستسلماً للزمن.

كانت تفكر في بؤرة اللامعقول التي سقطت فيها، وتمسك بسماعة الهاتف لتصل إليها نبرات صوته قائلا:

– أشتاقكِ

صمتت لثوان لتختزن كلمته في صدرها، أحست أن شموساً من الأحلام تشرق في الروح، وجداول رقراقة تروي أرض القلب المتصحرة.

همست: وأنا أيضا اشتقت إليك.

قال: أريد أن أراك.

أجابت: أنا أيضا.

قال: – غداً، اكتبي هذا العنوان، وسنلتقي في اللحظة التي تهاتفيني فيها:

– أية هاوية جنون دفعتها للقدوم؟

تأملت الغرفة الواسعة التي تجمعهما، نظرت إليه، إلى ملامحه السمراء، إلى جسده العملاق، لماذا هي مأسورة إليه بهذا الشكل، وكأنها طفلة دخلت حديقة الألعاب.

كان يضع الأطباق على الطاولة حين قال لها، وهو يتأملها بدفء:

– اخلعي معطفك وحذاءك الغرفة مكيفة.

لا لن تخلع حذاءها يجب أن تظل متأهبة للمغادرة في أية لحظة، فهي لم تعرفه جيدا بعد، هذا لقاؤها الأول به وحدهما منفردين، هل هي غبية وساذجة لأنها تبعت أوامر القلب وحضرت للقائه.

طافت كل تلك الأفكار بمخيلتها فيما هو يرفع الستائر ويعلق بمداعبة على الطائرة التي تمر في السماء، واصفاً شرفته بأنها ممر جوي للطائرات.

عبثاً تحاول مقاومته، منذ لقائهما الأول عرفت أن هذا الرجل سيشكل منعطفاً خطيراً سيغير حياتها.. بعد قبلتهما الأولى أدركت تماماً أنها تحبه بعنف مجنون ومتهور.. أنت روحها بألم حزناً على حب مرصود للفراق منذور للرحيل.

وماذا لو كانت عنده مجرد محطة؟ لكن لِمَ قال إنه يحبها؟ لِمَ قال إنه التقى بها من أعوام طويلةَ، وأنها أنثاه المفقودة؟ كيف قادها المجهول إليه إلى رائحة رجولته التي تتنشق فيها عبق الهال وسخونة الغابات الاستوائية الحارة.. تلك التي أيقظت حواس الروح.

أمواج..أمواج.. ترتفع بها إلى أعلى، حيث جنون العاصفة، تسبح تغوص كعروس بحر تنقل بفمها اللؤلؤ، ترتعش في حركات عنيفة قبل أن تنخفض الأمواج، قبل أن تهدأ العاصفة وتصل إلى شاطئ الحلم لتغفو بسكون.

– هل من المعقول أن لحظاتهما معا حملت كل هذا الصخب.. كل هذه الحياة؟

معه لم تعد تخش الضعف أو التخاذل.. تمنح دون أن تدري، وتأخذ دون أن تراقب، وحين سالت أمطاره على صحراء جسدها رغبت أن تخترق جوانيتها أكثر، أن تفجر كل ما في داخلها من ينابيع.

كلمة خواء أكثر مفردة تصف رحيله عنها والامتلاء بعوالم مدنه.

لا.. لا.. ربما هي امرأة ككل النساء.. وهو رجل ككل الرجال، لكن أتراهما أحبا حقاً.

٢٠٠٢/٠١/٦

المعـــبر

بيروت ٢٠٠٢

آه "هذار"...

هل هي شهوة الكتابة، أم جثة سامي ما حال بيننا حقًا؟ ولماذا معك قُدر لي أن أكون القاتل والمقتول؟ من منا حزن أكثر للخسارة؟

أنت فقدت تؤأمك صديق وحبيبة غابا عن عالمي بعد أن كانا نواته.. لم أعرف الحب بعدك، لم أعرفه قبلكِ، عرفته معك.. لكن ماذا تبقى لنا بعد رحيل هذه السنوات؟! أسئلة ما لها إجابة، أسئلة ظلت معلقة عشرة أعوام. وبأي حق أتكلم الآن؟ لماذا أسأل.. حقًا من كان البادئ؟

أنا، أنت، القدر، أم "سامي" ذاك الذي زرع الحب بيننا ورحل، تاركًا شبحه مستعدًا للظهور في أية لحظة.. لماذا عدت الآن تظهرين في حياتي كنخلة لا نستطيع أن نمر من دون رؤيتها. عمن أتيت تبحثين الآن؟

(١)

مسكينة "سوزان" أمضت سنوات زواجنا وهي تعلم أنكِ تنامين مكانها على الوسادة، ولم تستطع إبعادك. عشرة أعوامٍ وطفلتان عجزتا عن تغيير طقوس زياراتك اليومية.. كجنية حلمٍ أتيت تاركة ورقة صغيرة كتبت عليها: "جئت أراك. هزار"، وكأنكِ على يقين تام أن هذا الاسم صدع في الذاكرة لا يزول، لا تختاري الحلول الوسط كعادتك، متيمة بإيقاع المفاجآت الغريبة، ورؤية آثارها على الملامح، هذه هي أنتِ أعرفك.. لم تتركي رقم هاتفك، غادرت بصمت، بعد أن أكدتِ عودتكِ.

(٢)

أتراك تَعلم معني الانتظار؟ أن يمضي عمرك وأنتَ تشتهي لقاء شخصٍ يغتالك الحنين لكلماته، لملامح وجهه، لنبرة صوته.. أي حبٍ جهنمي هذا؟ ها أنا أحاول لقاءك من جديد بعد كل ما جرى، بعد رحيل عشرة سنوات، ها أنا أعبث بذكرياتي معك ولا أطمع ببعث الحياة فيها. عدتُ إلى بيروت، إلى تلك العاصمة التعسة التي أخذت مني كل شيء ولم تمنحنِ سوى تأشيرة مغادرة إلى فرنسا.. لقائي مع "ألبرتو" بعد أشهر قليلة من وصولي إلى باريس، ثم زواجنا خفف عني لوعة رحيل "سامي"، وموت أمي حسرةً على فقده، أخبار الحرب كانت تصل من كل مكان، من نشرة الأخبار، من القادمين

والمغادرين.. عمل "ألبرتو" في السفارة اللبنانية سهل لي لقاء الكثير من الأصدقاء القادمين من لبنان.

كنت أتابع أخبارك، وتنقلاتك من مكان إلى مكان، كلما فكرت في رفع سماعة الهاتف وفحايرتك، مثلت أمام عيني جثة توأمي سامي الذي أصيب برصاص القناص وهو يرافقني إلى القسم الآخر من المدينة كي لا أخلف موعدي معك. قتل سامي، وأصبت بانهيار عصبي، بإصرار حثتني والدتي على مغادرة بيروت، وأرسلت إلى خالي في باريس تحكي له ما حدث.

(٣)

بيروت ١٩٨٢

قلتِ لي ذاك اليوم: "إياك وذاك المكان، فيه الخراب، فيه فراقنا، فيه النهاية" لم أصدقك، هزئتُ من قناعاتك أيتها العرافة الصغيرة، ومع كل إيماني بك ظننت خوفك قلق عاشقه لا أكثر، وكيف أعي وما كنت أبصر غير شهوة الشهرة والقلم تتربص بي في ذاك المكان. – إياك أن تذهب، لا تقبل العرض.

وكيف كنتُ سأرفض وما كنتُ حينها إلا صحافيا مبتدئا تنبأ له البعض بالنجاح، راتب سنوي ضخم، مكتب في وسط البلد، وفريق عمل أنا المسئول عنه كيف أرفض كل ذلك من أجل حلم.

صرختِ: – هذا ليس حلماً، هذا سيقع.

قلتُ: أشك أحيانًا في طبيعة تفكيرك، لابد أن قراءاتك في كتب (الماورائيات) أثرت على شخصيتك، فجعلتك تؤمنين بالخرافات.

ابتسمتِ ساخرةً، ورحتِ تذكرينني بحوادث قديمة وقعت عندما كنا صغارًا، حين طلبتِ مني ألا أعود في سيارة المدرسة، لأن حادثًا سيقع في ذلك النهار، ومرة أخرى نبهتني ألا أشارك في مباراة كرة القدم لأنني سأصاب برضوض كثيرة.

هكذا كنت ترين الأمور، وكنتُ أقع في دهشة شديدة عندما يحدث الأمر.. ولما سألتك مرة عن ذلك قلت:

– أستشعر ما سيقع لأحبائي من سوء وأحاول تنبيههم.

– هل ترين الشر فقط؟

– الخير لا داعَي لأن نراه لأنه سيحدث.

– هل نسيت أن المدينة مقسومة إلى نصفين، وأنك ستبتعد عني وتصبح في النصف الآخر؟

– سآتي لرؤيتك كل أسبوع.

– أمك سترحل معك أيضًا؟

– نعم.

إذن لن يشدك رابط إلى هنا.. صمت قليلاً، كنتُ أريد أن أقول: تعالى معي، لكنني كنتُ أدرك أن رحلة الحياة إبتدأت الآن.

– وهل أنا مهاجر، أنا مقيم معك في البلد نفسه.

– لكن بيننا معبر، بيننا حواجز ومسلحون وبنادق يقفون كي يمنعوا النبض.

(٤)

بيروت ٢٠٠٢

إذا كان في الحياة أحاسيس مجهولة، حائرة متشابكة، متضاربة، مجنونة، ثائرة، فإن أحاسيسي نحوه هي كذلك.

طيلة هذه الأعوام ، وكل ما عصف بكياني من أحداث لن أنساه بل ولم أستطع التواصل معه.. دائما كنت على وشك العودة إليه، معه كنت أقف على حافة الأحاسيس المتطرفة، وأدرك تماما أنني حين أقرر المجازفة بلقائه سأصل حدود الخطر، لكن أبدا ما فقدت يقيني من عودتي إليه، من هذا اليقين كنت أستمد قدرتي على مقاومة لوعة الفقد.. كنت أدرك أن لقائي معه قد يتحول إلى ردة عاطفية خطره، لكني لم أبال، كنتُ أتلهف لرؤيته ولو لمرة واحدة وليسقط العالم.. ذاك اللقاء الذي تأخر عشرة أعوامٍ كامله، ظللتُ فيها حبيسة ذنبٍ اقترفه قلبي.

(٥)

لقاؤنا كان عاصفاً في البداية، أتاني صوتها بطيئاً بنغمة عذبه يمزج بين العربية والفرنسية، تلك اللكنة المحببة التي مازال صداها في أعماقي.

– سأنتظرك في مكتبي في العاشرة صباحاً.
– لن أتأخر.

لم يكن صباحاً كأي صباح كان موعداً مع الحب، لكن ما جدوى الحب حين يصل في قطار العمر المتأخر؟ ما جدواه حين يبتلع خيباتنا وإخفاقاتنا، وانتظارنا المرهق على عتبات اليأس؟

وعادت "هزار" إلى حياتي إلى ذلك الركن الذي ظل خاوياً منذ غيابها الطويل.. كانت على وشك المغادرة، بعد أن جلسنا معاً ساعتين، حين استوقفتها قليلاً طالباً منها أن تمنحني دقيقتين كي أحدق خلالهما في زرقة عينيها السماويتين، وضعت يدي كلتيهما على وجهها وشعرها، اقتربت شفتي من شفتيها في قبلة بطيئة كما كانت قبلاتنا في أيام الصبا.. لكن شيئاً من الرغبة بالتشبث بالآخر، للتأكد من أنه موجود حقاً دفعنا إلى قمة الاحتراق ولهاً.

(٦)

غادرتُ مكتبه.. لم أكن أنتظر أن تتحول تلك الزيارة الصباحية إلى يوم كامل للحب، حين طلب من سكرتيرته سرعة المغادرة، وتأجيل كل المواعيد إلى يومٍ آخر.

وحدنا في تلك الحجرة الكبيرة، التي لا تتسع لسرير للحب، لأنها مليئة بالكتب والمجلات والأوراق والملفات..كل ما فيها لا

يحرض على المغامرة، ما عدا صاحب تلك الحجرة. في لحظة انفلات حادة، كنتُ بين أحضانه، تهاوت لدي كل رغبة بالمقاومة سقطت حقيبتي على الأرض ووجدت نفسي أشده أكثر.

(٧)

أخذتُ شقة خصصتها للقاء "هزار" تزايدت الفجوة بيني وبين "سوزان"، وصار كلانا صامت وراحل في عالمه الخاص، وكأن بيننا اتفاقا غير معلن على عدم السؤال.

إنها "هزار" لقد عادت إلى كما كنت أحلم، لكن ما الذي تغير فيها، مازالت جميلة، فاتنة، رغم ذلك فإن شيئاً ما لم يعد كما كان.. من الذي تبدل، أنا.. هي.. أم الزمن؟ هل الأعوام العشرة خلقت بيننا كل هذه الفجوة؟

صرتُ ألتقيها مرتين في الأسبوع، لكني أسأل نفسي كل يوم أما زالت "هزار" حلمي الجميل الذي كان؟ ولا أجد الإجابة.. هل تحول الوله من عالم الشغف إلى عالم الرغبة فقادنا إلى هذا الإخفاق؟

ألمح في عينيها نظرات تائهة، حائرة، إنها نفس النظرة التي رأيتها في عينيها آخر مرة قبل رحيلها.. أتراها مازالت تظن أن محاولتها لقائي كانت السبب في موت سامي؟

أحس أيضاً أنها تشاركني الإحساس نفسه لكنها لاتتكلم، ورغم ذلك مازلت لا أخلف لقاءها في أي وقت تاركا حكايتنا رهينة زمن مفتوح بلا موعد.

(٨)

لم لا نستطيع أن ننحت تضاريسنا النفسية ونشكلها كما نشكل أجسادنا، وهيئاتنا الخارجية؟لمَ نترك أحاسيسنا عرضة للتقلبات العاطفية، ولعواصف القلق، ورياح الانتظار؟

أنا الراحلة دوما بلاميناء، أنا امرأة الفقد والغربة.. أي عالم وحشي هذا؟

حاجة الإقلاع تقتحمني، الرحيل رغبة مجنونة ثائرة تفرض كيانها على ذاتي، فأرفض البقاء والركون لحكاية نسجها الغياب.. بعد مغادرتي له أغرق في إحساس جليدي.. لماذا أقوم بهذه المغامرة ولأي سبب أترك "ألبرتو" يتخبط في ظنونه نحوي بدون أن يمتلك جرأة السؤال؟

اليوم صرت أخاف من رصاصات الشك أن تصوب إلى، وفي زمن ما خرجت للقائه بلاخوف من رصاص القناص.. إلى متى أحيا كل هذه الحيرة؟ لما لا أستطيع حسم امري في البقاء أو الرحيل؟ إلى متى ستقسم حياتي ازدواجية حادة بين خفي ومعلن؟

وإلى متي سأظل أسيرة معبر الانتظار والخوف؟

الهارب

كـان يمـشي بـبطء، متثـاقلاً يجـر خطواتـه كمـن لا يريـد الوصـول، ترافقـه الـسماء بعـد أن ألقـت بـالقمر والنجـوم إلى البحر فغدت كالحة السواد.

ثمل، كعادته كلما ضاق به جسده ورغب بالخروج منه ونسيانه، أحس بالشتائم تثقل لسانه وترفض الخروج من متاهات صدره، دفعها بعنف فلم تصل منها سوى كلمة: "اللعنة".

سـار خطـوات عـدة نحـو الـشارع الآخـر المعـاكس لبيتـه.. كـان يعلـم بأنـه يـسير فـي أكثـر الأحيـاء فقـراً وبؤسـاً وخطـورة.. إلاَّ أنـه لـم يبـال، فهـو لايريـد العـودة إلـى البيـت هـذه الليلـة. يريـد الهـرب مـن نظـرات زوجتـه الزائغـة التـي تفـوح منهـا رائحـة العنـاء والفقـر، وصـراخ طفليـه وضـجيجهما، الـسير فـي المجهـول واقتحـام الظلمـة أفـضل مـن العـودة الآن بعـد أن رقـصت الكـؤوس فـي رأسـه فأشـعرته بنـشوة يخالطها الأسي والمرار.

إلـى الأمـام.. خطـوات.. خطـوات.. لا يـدري كـم اسـتمر، أحـس بالإعياء يكبل قدميه وباليأس يحيط به كزنزانة عفنة وعلى الرغم من

ذلك لا يريد العودة. أحس بقدمه اليمنى تصطدم بعلبة حديدية فارغة داسها بقدمه وهو يصيح: "كلانا بلا جدوى لا يستحق البقاء أين أنت أيها الموت تعال إليّ..".

عاد يسير هارباً إلى أحضان اللاشيء. فجأة اصطدم رأسه بجدار صلب، أحس بالدوار للحظات. رفع رأسه. أبصر أمامه رجلاً طويلاً كالمارد يرتدي بذلة سوداء أنيقة ويبتسم بهدوء. سأله بعد أن استغرب وجوده في مثل هذا المكان: من أنت!؟ لماذا أتيت إلى هنا؟

نظر إليه الرجل مبتسماً وقال: "سمعتك تناديني فأتيت"، عاد يسأله بهلع: "من أنت"؟

قال الآخر: كنت في طريقي لأقبض على إحدى الأرواح الطيبة فسمعتك تناديني فجئت إليك لآخذك معي، أما قلت: "مللت الحياة.. أريد الموت".

أجابه بفزع كبير:

– لكن الآن لا.. لا.. زوجتي.. طفلي ليس لهم أحد سواي.. ظل يردد هذه الكلمات مرات عدة دون أن يسمع إجابة. التفت حوله فلم يجد أحداً، راح يركض بسرعة كمن أطلق من الزنزانة.

عاد إلى بيته، استقبلته زوجته قلقة وهي تسأله: "أين كنت"؟

لم يجب بأية كلمة. ربت على كتفها بحنان واتجه نحو غرفة طفليه، تطلع إليهما بمحبة، ثم طبع قبلة على جبين كل واحد منهما وذهب إلى سريره.

في اليوم التالى اتجه إلى عمله نشيطاً، وهو يتساءل عما رآه أهو حقيقة أم خيال؟

وعند عودته من العمل ناولته زوجته ورقة وهي تقول: "أتى رجل غريب، لم يفصح عن هويته، وترك لك هذه الرسالة". فتحها بسرعة وقرأ: "سأعود إليك مرة أخرى".

مرايا مكسورة

نظرات التهامية اعتادت عليها فلم تستوقفها أبداً، ولم تحرك سحائب الغرور في داخلها، فهي تعرف أنها جميلة، بديعة التكوين..

كان الوقت مساءً تابعت سيرها على كورنيش البحر.. أحست برغبة في أن تبصق على شيء ما، أي شيء عليها أن تبصق، أن تتقيأ ذكرياتها، المالحة.. منذ قليل كانت معه، سقط بثقل جسده، وكرشه الضخم فوق جسدها.

هل هي تمشي على شريط الذكريات المحترق، والناس حولها تمشي على أسفلت أعمارها، تسير بمحاذاة الأقدار لتنصت إلى أزمنة الغير.

شبان يرتفع صوتهم شاتمين البلد وغلاء الأسعار، وآخرون يتحدثون عن أزمة فلسطين ومحنة العراق، فيما صوت ثالث يرتفع بأغنية لفنانة صاعدة.

فتيات لا يتجاوزن العشرين يتمايلن على الرصيف، بحثاً عن علاقة، عن رجل، عن حبر، عن مال، عن أية صيغة تضمن لهن حياة

أكثر رفاهية قبل أن ينذوي شبابهن، فيما فتاة أخرى تسير بمحاذاتها تحكي لصديقتها فشل خطبتها للمرة الثالثة، لأن خطيبها فرض عليها الاستمرار في العمل بعد الزواج.

عجيبة هي تلك المعادلة التي تقوم بين البشر وأسمائهم، فتربط حياة أشخاصٍ بأسماء بعيدة كل البعد عن ذاتهم.. أمضت حياتها مشتتة بين اسمين لايمتان إليها بصلة،"غني" و"زاد القلوب"، أما كان الأجدر بوالدها "مالك الذهبي" أن يسميها "وحيدة" أو "غريبة" أو"أحزان"، أما كان يجب أن يسمي بشحاذ الصخري؟ لم تحمل من اسمها الأول إلا غريمه، ولم تكن من اسمها الثاني إلا زاد عابر.

حين التحقت في كلية الطب كان هدفها الأول ليس تحقيق حلم والدها بأن تصبح ابنته "دكتورة غني"، بل كانت تسعى لمعرفة الأسباب العلمية الحقيقية التي أخرت والدتها عن الإنجاب لمدة ثماني سنوات قبل أن تلدها هي، مما أدى إلى رحلات طويلة مع الأطباء وعقاقيرهم، والسحرة وشعوذاتهم، وكانت النتيجة أن حبلت المرأة، وأنجبت فتاة وقع الخلاف على اسمها بين الأب والأم، فالأب يصر على أن تكون ابنته "غني"، تغنيه عن كل ما في الدنيا، والأم تريد أن تكون الابنة "زاد القلوب" لكل محبٍ، ولم يتحقق حلم الأب والأم، ومنذ ذاك اليوم عاشت وفي داخلها فتاتان.. فتاة

تشدها إلى الذكريات الطفولية العذبة، وفتاة تدفعها إلى هاوية الطموح، لتحقق ما تريده بأي ثمن.

لماذا تتذكر هذه الأحداث اليوم؟ لماذا تفكر باسمها؟ لماذا تفكر بالفقر والغنى؟ لماذا تفكر أنها كانت على سرير مقزز منذ قليل؟

لماذا يفكر بكل هذا بما تسير وراء الهدف؟ لقد رفضت كأس الويسكي ولاتذكر أنها شمت المخدر حين طلب منها، هل من المعقول أنها غير ثملة وغير مخدرة؟!

لا.. هي عاقلة.. قهقهت عالياً وهي تفتح حقيبتها لتتأكد من وجود مفتاح وعقد إيجار الشقة لمدة سنة، الشقة التي ستصبح عيادتها الخاصة.. سيتحقق حلمك يا أبي، وستبصر من سريرك الأبدي الاسم الذي اخترته إلى جانب اسمك الدكتورة "غني مالك الذهبي".

تابعت سيرها وهي تحس بإعياء يشطر روحها، وبرغبة في أن تلقي بنفسها في أحضان دافئة، ثم تصرخ وتبكي وتمزق كل ذكرياتها الأفعوانية التي تلتف حول جسدها، تعرف أنها ستموت ضحية هذا الجسد، ضحية اسم دفعت الكثير حتى تراه معلقاً على يافطة حديدية تعلن عن وجودها.

وسط إعيائها الشديد لمعت في ذهنها فكرة أنها ليست ضحية، هي أمام الأهل الأقارب، الجيران والأصدقاء الدكتورة "غني"، تخرجت منذ سنة من كلية الطب وتمارس عملها في أشهر مستشفيات البلد وستفتح قريبا عيادة في منطقة راقية، الناس في النتيجة غير معنية بالتفاصيل، وتهتم بالنتائج، معلقة الأمر على مشيئة الله والحظ والظروف، وهؤلاء الناس أنفسهم ما قدموا لها يد العون عندما مات والدها وهي في العشرين من عمرها، ولم يترك لهم سوى دكان الحلوى الذي كان يعمل فيه واسمه كأشهر حلواني في المنطقة إلى جانب جملة من الديون والكمبيالات.

في العشرين من عمرها أصبحت مسؤولة عن أم وحلم وطفلين.

من سيصنع الحلوى.. هي ووالدتها؟ لكن من سيشتري؟ الزبائن كانوا يشترون من صناعة يد "مالك الحلواني" والمعمل الذي كان يشتري البضاعة رفض استلامها، لأنها دون مستوى الجودة السابقة.. ستذهب للقاء صاحب المعمل الذي كان يستلم بضاعة والدها ويشحنها إلى الخارج، هذا ما نصحتها به جارتها وهي تصف لها كيف ينبغي أن تكلمه بمزيج من الدلع واللياقة كي يشتري البضاعة، ماذا ستخسر الآن؟

– اسم على مسمى، هل من المعقول أن الحلوى جعلتك بهذا الجمال؟ لكِ ما شئت يا حلوة ستشحن البضاعة في الغد.

ربت على كتفها، ومرت يده على خصلات شعرها وهو يتفوه بهذه الكلمات. من هنا كانت البداية.. أليس كذلك؟

قال: مللتُ من الشفتين والعنق أريد أن أرى النهدين.

تململت في البداية رافضة، ثم تذكرت أنه دفع لها قسط الجامعة ذاك اليوم.

بعد ذلك إمتلك بالتقسيط جسدها كله ولم يستطع تجاوز عذريتها، لأنه عجوز، أظهر لها أنه يخاف عليها كابنته، ثم توسط لها للتدريب في مستشفى معروف، ولم يظن أنه سيخسرها وأنها ستستبدله بالدكتور الكهل رئيس القسم الذي تعمل فيه، هو انتهي دوره، وهؤلاء الرجال ليسوا أكثر من جسورٍ تعبرها لتصل.

الطبيب الكهل ورئيس القسم قدمها إلى مليونير عجوز متصابي، دخل إلى المصحة للعلاج من حالة الاكتئاب.. ماذا يريد مليونير عجوز أكثر من صبية جميلة ترافقه وتستقبل قبلاته، مداعباته، وتسدي إليه النصائح الطبية حول الطعام والشراب.. هكذا فكرت، لكن الحكاية كانت لعبة دوائر كل دائرة تفضي إلى أخرى.. في المرات الأولى من لقائها به، كان يكتفي بمداعبة جسدها بلمساته وقبلاته، وهي مستلقية شبه عارية، ظنت أنه لن يقدر على أكثر من ذلك، قال وهو يتمدد إلى جانبها على السرير الفاخر:

– مللت، أرغب بالمزيد. أجابت بلا مبالاة، وكأنها تذكره بعجزه: . أنا لا أمنعك.

ابتسم بخبث بينما يده تنزلق إلى صدرها:

– إذن لن تمانعي.

صمتت باستسلام وهي تفكر بالقسط الجامعي الذي عليها أن تسدده في نهاية الشهر.. مال إليها ثم مد يده إلى الكومودينو الملاصق للسرير، أمسك بجرس صغير ذهبي اللون، وقرعه مرتين، ثم وضعه جانبًا، لم تمر ثوان حتى دخل رجل آخر لا تعرفه، عار إلا من سروال داخلي، جسده يشبه لاعبي كمال الأجسام.. اقترب من السرير، صرخت بهلع: – من هذا ؟! أخرجه من هنا.

لم يعبأ بصراخها، واحتجاجها، وأنجز مهمته كما أرادها العجوز أن تكون، وهو يستمتع بالصراخ وتأوهات المفاجأة والرغبة، لعبة مثيرة، ما المانع أن تتكرر مرات أخرى؟

فيما بعد حين طلبت منه أن يساعدها في دفع إيجار العيادة أكد لها وهو يبكي حزناً على نفسه أنه لم يعد يملك النقود الكافية، لأن ابنه الكبير استولى على كل شيء ولم يترك له سوى الفتات.

قال لها: لماذا لا تطلبين من ابني قولي له "دين" تعيدينه في المستقبل.

وكان يعرف أن تكاليف إيجار العيادة رقماً تافهاً بالنسبة لابنه مقارنة بالمتعة الحلوة التي يضعها في دربه لإلهائه عن توجيه الملاحظات له عن كثرة إسرافه، لقد ملّ منها ليأخذها إبنه، لن يزعجه الأمر.

أريدك غدًا في سهرة طويلة تضم مجموعة من الأصدقاء. قال هذه الكلمة وهو يتمدد قربها عارٍ تماماً، فكرت في المقايضة الجديدة، لكن العيادة هي الهدف الآن.

عرض عليها أن تشرب الويسكي، أو أن تشم بعضاً من المخدر، كي تحلق في عوالمٍ سرابية وفضاءات واسعة يذهبان إليها معاً.

وعندما سألته إن كان يتعاطى المخدر، أجابها بالنفي، وأنه يحتفظ به فقط للأصدقاء المدللين، عندها ذكرته بأنها طبيبة.. قال لها وهو يضحك ضحكة ساخره: آه لقد نسيت ذلك.

واصلت السير على الكورنيش.. إلى نهايته.

مازالت أصوات شبان آخرين تشتم غلاء الأسعار والانتخابات المزيفة في البرلمان، والفتيات يتهامسن ويحلمن بمن يأخذهن إلى ما وراء البحر، أما بائع الذرة فقد أعاد أغنية المطرب الشعبي التي يعلن فيها عن كرهه للاستعمار وحبه للوطن.

تطلعت إلى الأفق البعيد، رأت زيها الطبي الأبيض يتمزق إلى قطع مفرقة في الفضاء، ثم يجمع ويلم ليتحول إلى كفن أبيض.

٢٠٠٢/١/١

امرأة فاضلة

كلما رأته يغط في نوم ثقيل، بعد رحلة سكر وعربدة، أما هي فكانت منهمكة على الأوراق تصححها، يجب تسليمها للإدارة غداً، إنها امتحانات آخر السنة، وهي تعرف أن المدير يترقب الفرصة لطردها وإحضار معلمة أكثر شباباً وجمالا.

التدريس أيضا يلعب الصبا والجمال فيه دوراً. فكرت.. ليس أمامها سوى الرضوخ للأمر الواقع، والرضا بالإهانات المتتالية والمرتب الضئيل، لأن مسؤولية الطفلتين اختيار القدر منذ ثلاثة عشر عاماً، طوال هذه السنوات ومأساة انحرافه تتكرر كل ليلة، لم ترتح سوى في العام الذي أدخلته فيه إلى المصحة للعلاج من إدمانه على الكحول، خرج بعد أن أكد الطبيب شفاءه. شهر مضى ورجع إلى ما كان عليه وأكثر.

بعد زواجهما بسنتين سافر للعمل وعاد مع شلة من رفاق الضياع، مدمناً على الخمر والسهر حتى ساعات الصباح الأولى.

شكت تصرفاته إلى عائلته، لكن من يجيب؟ أب ضعيف الشخصية غائب في دنيا الله، كلمته الوحيدة "غدا الله يهديه"، أم متسلطة همها الوحيد إيجاد مستأجرين للشقتين اللتين تملكهما في وسط البلد، ودائماً تتمنى لو كان المستأجر من الطلاب المغتربين كي يتضاعف الإيجار.

إخوته البعض منهم مسافر، والبعض الآخر يضاهيه انحرافاً، أما أخواته فما فكرت باللجوء إليهن، لأنها على يقين أنهن سيسمعن شكواها، وهن يقشرن البصل ويقطعن اللوبياء ويتمتمن "الله يصبرك".

لكن من سيعيل الطفلتين وهو على هذه الحال؟ فكرت في الطلاق، لكن أين تذهب.. لا منزل.. لا عمل ما إن تزوجت حتى باع أخوها منزلهما الصغير بسعر رخيص وهاجر إلى أميريكا قائلا إنه سيعطيها حصتها من المنزل بعد أن يرزقه الله من سفرته الطويلة.

لا تملك هي سوى الشهادة الثانوية، وعليها البحث عن عمل.

"نعم أبدأ العمل غدا".

هكذا أجابت المدير، مع أن المرتب كان ضئيلا وساعات التدريس كثيرة.

حرصت على تعليم الفتاتين.. كانت تصحبهما معها إلى المدرسة التي تدرس فيها، وتتوسط لدى زملائها المدرسين

والمدرسات للمساعدة حين تشكو إحدى البنتين من مصاعب المواد العلمية.

المرتب لم يكن يكفي ودائما كانت تقع في عجز واستدانة، لكنها لم تفكر بالبحث عن عمل آخر، لأن حاملي الشهادات الجامعية عاطلون عن العمل فكيف تكون الحال معها هي؟ جيد أن هذا المدير العجوز يرضى بتشغيلها.

تأملت ابنتها الصغري وهي نائمة، بدت أكبر من سنواتها الاثنتي عشرة، بكت عندما تذكرت كلماتها وهي تقول:

– ماما الجيران كانوا يشيرون إلى بابا ويضحكون وهو عاجز عن الصعود إلى البيت يقولون: سكران.. سكران.

ماذا تتذكر.. ؟! وكل ما في ذكرياتها كالح السواد متعفن نتن تذكرت قبل ثلاث سنوات عندما عاد زوجها ومعه رجل آخر سكير مثله، وبعد قرع شديد فتحت لهما الباب، تلك الليلة أحست أن زوجها تناول مخدراً إلى جانب الكحول، صاح بها وهو يدفع صديقه.

اخلعي ثيابك.. هو لايصدق أنه لديك خال كبير في.. قلت له لديك خال جميل جدا..

بدأ صراخة يعلو وهو يدور في البيت:

– هيا اخلعي.. اخلعي..

هربت تقرع أبواب الجيران تطلب النجدة.

"الأستاذ أكرم باع المدرسة".

استقبلتها معلمة اللغة الإنكليزية وهي تتفوه بهذه العبارة تابعت: "اليوم سنجتمع بالمدير الجديد كي يحدد فريق العمل للسنة المقبلة".

بعد لحظات من الاجتماع بالمدير الجديد عرفت أي نوع من الرجال هو. الكهل المتصابي ورب العمل الذي يعتبر الموظفين رقيقاً، والموظفات محظيات، اجتمع بهم مدة نصف الساعة عند الصباح، حدق في كل واحد على حدة، ثم أرسل في طلب كل معلم ومعلمة في حديث منفرد.. خرجت معلمة اللغة الإنكليزية وهي تقول:

– إياك ألا تحسني الإجابة عن كلمة السر.

كلمة السر.. ما هي تساءلت..؟!

"أراك في المساء". ضحكت وهي تغادر باب المدرسة.

سألها مركزاً على نقط الضعف:

– إذن أنت لا تملكين شهادة جامعية.

أجابت وهي تحدق في المكتب الذي يجلس إليه:

– أرى أن التعليم يعتمد على الخبرة أكثر من الشهادة وكما تعلم حضرتك سنوات خبرتي طويلة. كان يتأمل ملامحها، لابأس بها،

جمال مطمور في الفقر والإرهاق، كالذهب عندما يختلط بالمعادن الأخرى، ويحتاج إلى من يجلوه كي يظهر.

– سأنظر في وضعك أشار إلى الملفات الموضوعة على المكتب وقال: – لا توجد أزمة معلمات أبداً، كل هذه الملفات أمامي لفتيات يمتلكن الشهادة والخبرة، ما رأيك؟

أحست أنها على وشك السقوط عن الحبل الرفيع الذي تقف عليه، لم تتكلم، بدا عليها القلق والخوف، ضحك ضحكة العارف وهو يسير من خلف مكتبه، وقف إلى جوارها ثم ربت على كتفها وقال:

– لاتخافي.. ما رأيك لو نناقش حالتك مساءاً في بيتي؟ عند التاسعة نلتقي.

هي بمنظوره صيد سهل، امرأة تحتاج إلى الوظيفة بإلحاح شديد.. لاتملك شهادة جامعية تجاوزت الثلاثين، ولن تجد عملا بسهولة ظنت أن هذه الفئة من البشر محصورة في زوجها وأمثاله، وأنها معدودة بين أهل العلم والقلم أرادت أن تصرخ، لكنها ضحكت بسخرية وهي تتذكر اسم المدرسة" مدرسة الفضيلة والعلم".

عادت إلى بيتها..كانت تفكر .. لمن تذهب و لمن تشكو؟

تـذكرت الفتـاتين، الكبـرى فـي الرابعـة عـشرة والـصغرى فـي الثانيـة عشرة، هما في سنوات مراهقتهما الأولى، ستتعرضـان للجوع، للطرد من المدرسة للفقر والتشرد.

العام الدراسي الجديد أطل..

أصـبحت هـي رئيـسة لقـسم والمعاونـة الأولـى للمـدير، الجميـع يهابهـا، ويتوسـط لـديها لأخـذ الإجـازات، وطلـب الـسلف، رضـاها وغضبها متعلقان فوراً برضي المدير وغضبه.

ابتسمت وهي تنظر إلى أستاذ الكيميـاء يتوسط لـديها قـائلا: - مـدام.. أرجـو أن تـشرحي للمـدير اضـطراري للتغيـب بـسبب إجـراء عمليـة الزائـدة لابنتي.. أنتظر مـساعدتك، اعتـادت هـذه المواقـف، فاتسعت ابتسامتها وهي تقول: لكن صفاء ابنتي تحتـاج إلى دروس في الكيمياء.

هز رأسه سريعاً وهو يقول:

- حسنا.. أنا تحت أمرك.

نظرت إلى المكتب الذي تجلس إليه لمعت في عينيها ومضة حزن. هزت رأسها يميناً وشمالاً كأنها تطردها.. أبهذه السهولة طريق الوصول..؟!

على مدى السنوات السابقة كانت تخشى الحديث مع أي كان، وتنظر لذاتها على أنها الأدنى في المستوى العلمي والاجتماعي..

الجميع يركض نحوها الآن، ليتوسطها، يزورها في البيت خصوصاً بعد حصولها على الطلاق بقرار من المحكمة واحتفاظها بالبيت لحضانة الطفلتين.

صار الكل يختلط بابنتيها من أبناء وبنات المعلمات والأساتذة وغداً عندما تصبحان في سن الزواج سيتسابق إليهما الكثيرون لعلمهما وجمالهما ولمكانة والدتهما في الحقل التربوي.

هي المربية الفضلى ورئيسة القسم في مدرسة "الفضيلة والعلم".

الجميع سيصفق، ولن يتوقف أحد ليسألها: "كيف أصبحت مربية مثالية؟".

١٦ / ١١ /٢٠٠٦

سفر

عبرت ذاك الخط المتأرجح بين اليقظة والسبات، فتحت عيني ببطء ليطالعني ضوء نهار صاخب والشمس لا تكتفي أبداً من تسلق البشر.. دخلت إلى الغرفة.

"ماري".. استيقظي، حبيبتي.. كنت بكامل وعيي.. أفتح عيوني بشدة ومع هذا أمي لم ترني، بل هزت جسدي كي أستيقظ.. حاولت أن أقول شيئا لكن جسدي لم يطاوعني.. ولا أدرى سببا..

"ماري" – ما بك حبيبتي .. لايزال صوت أمي يرتفع، ويصدح في محاولة لإيقاظي، وأنا أجاهد كي أنبئها بيقظتي – لكن لا أعرف – أشعر بأني حرة.. ولكني مكبلة.

– "فؤاد" تعال وانظر إلى ماري.

صوت أمي استحال صراخاً. وجهها الأبيض صار ممتقعاً بارداً كالثلج. يهرع والدي بشعره المنكوش وبيجامته الرمادية الشاحبة، دون أن يغسل وجهه.

- ما بك يا جيزيل لماذا تصرخين؟!

أبي يعبر بخطواته نحوي، ويحدث أمي محاولا نشر الهدوء، أنظر إلى الغرفة والدي يفحص جسدي، لا أعرف لأول مرة ألاحظ أني أرى جسدي، صحيح أنا أرى الغرفة وجسدي والسرير وأمي وأبي.. كما لو كنت أشاهد فيلما.. لكن كيف.. أنا هنا وأرى جسدي هناك؟ من أنا؟ أين أنا؟

أمي بدأت تنتحب، وجه أبي بدأ يغدو شاحبا، وهو يمد يدي ليقيس نبضي يضع رأسه على صدري ليصغى إلى دقات قلبي.. صحيح أنا لاأسمع دقات لقلبي ـ غريب..

– دكتور.. ينطق أبي بصعوبة.. أحببت أن أطمئنه علي.. لكنني لم أستطع – هناك شيء يمنعني من إيصال كلماتي لنطقها.. لكن مع هذا لا أشعر بالانزعاج.. أمي بدأت بالنواح ولم أفهم لماذا؟ ثم انهالت على جسدي بالقبل وبدأت تضمني وتصرخ بي أن أعود.. لا أفهم.. كيف أشرح لها أني كا زلت هنا ؟! صراخ أمي يعلو.. وانفعالاتها تتزايد وأبي يتحرك بسرعة للخارج مع أنني أحب أمي إلا أني غير مهتمة بصراخها.. لأول مرة لا أتعاطف مع دموعها ـ أوحزنها أحسست أني هادئة بلا انفعال، لا أعرف كم مر من الوقت.. عاد أبي ومعه رجل غريب.. وضع سماعة على صدري، قاس نبضي من يدي.. ثم نظر إلى والدي بأسف: متأسف العوض بسلامتكم.

العوض بسلامتكم، كدت أضحك، لكنني لم أفعل .. العوض بسلامتكم تستعمل للحديث عن ميت، ميت من ميت؟ هنا في هذا

البيت ميت؟ لا أرى أي أموات، في هذا البيت نعيش ثلاثتنا أنا وأمي وأبي، وأنا أرى ثلاثتنا أمامي أمي وأبي وأنا.. لكن مهلاً.. أرى ثلاثتنا.. ثلاثتنا كيف أستطيع أن أرى نفسي لا أفهم..

– "فؤاد" البنت ماتت.. يا "فؤاد".

أمي تصرخ وتولول، انهارت على السرير وأبي يبعدها ويهدئها.. وأنا لا أستطيع التدخل لتهدئتها.. مع أنني أتمنى لكن لم يمض وقت طويل حتى عمت المكان فوضى عارمة، غرفتي الهادئة، الوادعة أصبحت مغزوة، كالسوق من القادمين والذاهبين .. جيران أقارب لا أفهم لمَ كل هذا الكم من الناس يتحلقون حول جسدي النائم ويشاركون أمي بكاءها ويهدئونها.. لا أفهم.. عندما أستيقظ من سباتي سأنهر أمي وأطرد هؤلاء إنهم يوسخون غرفتي وذاك الصبي هناك ينزع اللوحة التي على الحائط.. آه وتلك السيدة الضخمة ـ جارتنا ـ داست فوق شريط CD يأتي بالموسيقى.. آه كم جميلة هي معزوفة Deliveranee .

غريب أحاول أن أصرخ بأمي أن تطرد هؤلاء المخربين من غرفتي.. إنهم يعيثون بها فساداً. أخيراً يشفق أبي عليّ.. ويقرر نقلي إلى غرفة أخرى ولاتزال نفس الوجوه ونفس الدموع والأصوات تتكرر ومع هذا أنا لا أشعر بشيء.. جارتي "إيلين" تتحدث وهي ترسم شارة الصليب على صدرها..

يـا أبونـا.. كيـف راحـت.. كأنهـا طيـر صـغير عـصفور.. "كـم عمرها؟! أمي "تلعلع" من بعيد..

الآن بـدأت أسـتوعب هـذه التي رحلـت لربمـا تكـون أنـا.. لكـن كيف رحلت.. ثم أنا حسبما فهمت – رحلت يعني مت، كيف أكون ميتة وأنا أفكر.. المعادلة المشهورة تقول: "أنا أفكر إذن أنا موجود، وابن سينا كما أعرف يقول إن الإنسان يدرك وجوده قبل أي شيء.. يعني الإنسان الحي.. وأنا أدرك وأفكر وأحلل.. وهؤلاء الأغبياء يقولون مت.. كيف مت؟ وأنا لا أزال هنا ـ أحاول الصراخ فيهم لا جدوى، أحاول الاقتراب منهم، لكن أبداً كما لو أني ملتصقة بمكاني، أرى لكن لا أستطيع التفاعل، ربما مازلت نائمة.. ربما أحاول الصراخ.. التحرك.. لكن لا جدوى ومع هذا لا أشعر بالملل.

غريب.. أنا لا أحس بشيء.. لا أحس بأي شيء البتة.. أتراني لا أزال نائمة.. ربما.. ربما.

حـب شرقي

في أحد سراديب السعادة، كنا نسير.
في درب فرعي لطريق اتفقوا على تسميته بـ"درب الحب"، هذه هي أنت امرأة الزواريب والعتمة.

قال لي ونحن نسير في الحي الدمشقي العتيق نحو ركن نهرب إليه من هدير الزمن الحاضر، لنتصالح مع عمرٍ بلا تاريخ أو ذاكرة. تجاوزنا فوهة الرغبة، لننزلق في متاهة وله بلا أمس ولا غد.

حين تكون معي نصبح "نحن"، والعالم كله يصير "هم" أحس أنك رجلي أنا، سري الخاص، جسدك امتداد لجسدي، وإني انتزعت منه في زمن ما وعدت إليه الآن.

لو كنا معاً في العلن، لو أننا نمتلك واجهة اجتماعية لعرض المشاعر، أسنبقى على ضفة واحدة وعلى الأخرى يقفون "هم"، أم أننا سندخل في عوالمهم وصراعاتهم اللانهائية؟

"هم" لابد أن يدخلوا بيننا بشكل أو بآخر لتصير أنت رجل الحقيقة القاسية، الذي نسي لحظة انعطاف الزمن إلى سراديب

السعادة لنكتشف معاً وهمنا السري المسمى بأسطورة الجسد، وأصير أنا امرأة الواقع الثقيل حيث تكسر الرغبات وفرقعة الأحلام.

– لِمَ ، لِمَ أنا دائما عندكِ الحلم ونقيضه محور الحكاية والبعد النائي لقصة تخشين أن تنتهي يوماً؟ لِمَ لا تبصرين في الغد إلا الرماد؟

وددت أن أقول "لأن الحياة هكذا" لكني اكتفيت بالصمت خشية أن تتحول هذه الليلة إلى جلسة حوار مصيري، ابتسمت بصمت وكأني اعتذر لعينيه.

راحت عيناي تجولان في أرجاء المكان، كي تحفران معالمه في ذاكرتي تخليداً لليلة الحب الدمشقية.. على الطاولة أمامنا صينية كبيرة من النحاس الأصفر موشاة ببعض النقوش، المقاعد شرقية، ألوانها تمزج الخمري بالترابي ولون الشفق، مزيج من الألوان يحضر إلى المخيلة غرور الصحراء ونزقها.

على الحائط لوحات، سيوف، سلال من الخيزران تصطف في الزوايا سبحات كبيرة معلقة على الجدران، نحاسيات على شكل صحون مزينة برسمات لرجال يضعون العمائم، ونساء يحملن الجرار، قلائد في وسطها أحجار زرقاء مصنوعة على هيئة عين.

وفي وسط المكان بركة من الرخام الأبيض، تسيل الماء إلى جوفها عبر نافورة فضية تدفعه إلى أعلى تعلقت عيناي لثوانٍ بمشهد النافورة.

صوت نغمات العود تعلو، والمغني يردد مقطعاً من الموشح الأندلسي: ياليل الصب متي غده.

أقيام الساعة موعده.

داهمني إحساس بالفرار من عصر الحضارة والتكنولوجيا، من عصر الحروب والمجاعات، تمنيت لو أبقى في هذا الركن، أن ينساني التاريخ في هذا القصر العتيق، فلا يراودني خوف من الغد.

نظرتُ إلى ملابسي، بدت عصرية جداً، لا تلائم أحاسيسي، تمنيت لو كان ردائي تلك العباءة المغربية التي أهداني إياها، أي إنسجام عذب سيكون حينها.

– ماذا جرى لصوتك، هل دخل في كوما روحية لعدة دقائق؟

– لا.. لا كنت أتأمل المكان وأحس كما لو أني جئت إلى هنا من قبل.

– مع من ياترى؟

– لابد أنني كنتُ هنا منذ أعوامٍ طويلة جداً.

– إذن كم عمرك الآن؟

– يتجاوز الألف عام.

كنت أتكلم بهدوء وثقة، وكان يستمع إليّ، وفي عينيه تساؤل ساخر عن المعنى لازدواجية كلماتي.

– هل أثرت بك دراسة التاريخ إلى هذا الحد؟

ما آخر أخبار بحثك عن "بوذا" بعد تحطيم تماثيله؟

– تأثرت كثيرا بما قرأته عن (النيرفانا) البوذية، مازلتُ أبحث في حقيقة أن يكون بوذا نبياً.

– وهل هو كذلك؟

– لا أدري بعد، ومن أكون كي أصل إلى المعرفة الآن! انعطف عن الحديث، ثم قال بمداعبة :"أنتِ حبيبتي، وغداً زوجتي".

– زوجتك ؟!

– نعم.. يجب أن تكوني معي أن تشاركيني تفاصيل حياتي بحلوها ومرها.

– وما حاجتنا إلى الزواج؟ ما لنا ولآرائهم وتشريعاتهم، يكفينا أن نحقق عالمنا الخاص، لماذا يريدنا أن ندخل دائرة الظل كي نخضع لقوانينهم وأحكامهم؟

أليس هو من قال يوماً: إن الزواج خدعة لاستمرار البشرية، وأنه المضاد الفعال لكل أنواع الحب، ما الذي اختلف الآن؟

لا أعرف، أتخيل أنه تكلم كثيراً، طلب مني الاختيار وحسم أمري بين بقائنا معاً أو رحيله.. الزواج علاقة مؤسساتية تهدف لإقامة

أسرة وتربية أطفال وعلى هامشها وجود الحب أوعدمه، مع مرور الوقت تسيطر الحاجات المادية على الدافع الروحي لوجود الشريكين معاً، بيننا لامشاريع مشتركة سوى انسجامنا المتقاطع، نحن لا نسعى لتأسيس شركة، كل ما أريده أن نكون معاً بلا قيود، بلا محظورات تجبرنا كي نظل معاً. أردته أن يدرك كل ذلك، ألا أشرح وأشرح بلاجدوى.

أجهل إن كنتُ تفوهت بكل ما أفكر به.. أم حبست الكلمات في أعماقي.

خَفَت صوت الموسيقى، عمَّ الهدوء المكان، كانت عيناه تحدقان بي وهو يسألني:

– ما بكِ؟ مضى وقت وأنت تتأملين نافورة المياه هل أعجبتك، أم أنكِ راحلة مع نغمات العود والموشح الأندلسي، قبل أن يبدأ العزف كنتِ تحدثينني، عن بحثِ تعدينه عن "الديانة البوذية".

نظرتُ إليه للحظات، لم يكن يتحدث عن الزواج، هل تداخلت الموسيقى في ذهني فانقلبت لدي المفردات، لماذا لا يتحدث عن الزواج هل من المعقول أن تستمر علاقتنا على هذا الشكل؟

إلى متى سأظل أسيره الخوف والقلق، كلما كنت برفقته؟ أخادع عائلتي كلما أردت السفر للقائه؟

إلى متى كل هذا التردد؟ ومتى سينتهي متى..؟!

٢٠٠٢/١٠/٣٠

صورة مشروخة

"الذكريات التي يختزنها المرء تصنعه".

تذكرت هذه العبارة وأنا أتأمل الصورة، كم تعنينا الصور على صفحات الجرائد حين نعرف من يسكنها، وخصوصًا إذا رحل عن عالمنا، لكن نظري عاد يسرح لبعيد، من هذا الطابق المرتفع.

أنظر إلى لامكان، لا شيء يشد بصري أبدًا، لا زرقة السماء، لا بعض الغيوم الشاردة، كنت أطالع السماء وأتابع اللاشيء، كيف حدث كل ذلك؟ وكيف كنت سأساعدها دون أن أخسر سمعتي وأصدقائي وكل من حولي؟ رحلت فجأة، وعادت فجأة، اتصلت بي هاتفة بخوف:

فاطمة، ليس لدي أنت ، إن لم تساعديني أنتِ، فلن يساعدني أحد. إن الأمر مجرد فخ، ثقي بي، ثقي بأيامنا معًا. بدت من صوتها المرتعش كغريق ينظر إلى كخشبة خلاص، لم أستطع إلا إجابتها بتعاطف "لن أتركك".

كانت سحر من أكثر الفتيات تميزًا وسحرًا لم تكن الأجمل بل الأكثر دهشة وإثارة، كانت شقراء، زيتية العينين، نحيلة، شعرها

تقصه بشكل "كاريه"، كل الأشياء حولها تمر عبر قلبها ثم عقلها، حتى أحكامها الشخصية على الناس والمجتمع، فلا يهمها أن تتورط من أجل التعاطف مع قضية أو فكره أو شخص ترى أنه على صواب، أحيانًا كنت أحس بداخلها نواة لشيء اسمه "التطرف".

تعرفت إليها في العام الأول من قدومي إلى بيروت، كانت تسكن معي في بيت صغير للطالبات، وسرعان ما توطدت العلاقة بيننا وصرنا صديقتين. كنت أدرس الحقوق، وكانت تدرس الإعلام في الفرقة الثالثة، لذا كانت منطلقة ومتحدثة تحاور وتسأل يحس الآخر نحوها كما لو أنه التقي بها من قبل، كانت مرشدتي في كثير من الأماكن التي أجهلها وكنت أسر بالتجوال معها في شوارع المدينة، ومرافقتها في تغطية بعض التحقيقات الصحفية.

من أكثر الأشياء التي أثارت دهشتي فيها تلك الغرفة الصغيرة التي تجسد مزاجها الصاخب بالحياة، في وسط الغرفة سرير صغير إلى جانبه مكتبه بخمسة أرفف، تضم كتبًا متضاربة الموضوعات، طاولة صغيرة اختلطت فيها الأوراق بالكتب، وأقلام الكتابة بأدوات التجميل على الحائط صورة "غيفارا" وعبارات لفلاسفة غربيين وأقوال مأثورة، ولوحات مرسومة بتوقيع "سحر"، ولعبة صغيرة "لبابا نويل" يبدو عليها القدم. كنت أدرك في تلك الأثناء، أنها مرتبطة في علاقة حب مع "وائل" زميلها الذي تخرج وعمل في الصحافة،

أحيانًا كنا نلتقي ثلاثتنا في الجامعة أو على كورنيش البحر، وكانا يبدوان لي في غاية الانسجام والتآلف أو هكذا كنت أرى الأشياء حينها.

فجأة، خفت كل ذلك الصخب، وانطفأ بريق الحياة في عينيها، صارت تتجنبني بتعمد لتمضي معظم أوقاتها في عزلةٍ اختيارية، في غرفتها العجيبة.

رغم مرور الزمن مازلت أذكر بوضوح تلك الليلة، كنت قد حسمت الأمر، إنها تعاني من علةٍ ما، كثر ترددها على "الحمام" وصوت القيء الذي تحاول نكرانه كي لا يصل إلى مسامعي.. لم يتبادر إلى ذهني أبدًا نوع المشكلة التي تعاني منها، لذا حين ارتفع صوتها بالنشيج والبكاء، فتحت باب غرفتها دون أن أستاذنها في الدخول، حينها أصبت بهلع حقيقي لأن ذاك الشعر الأشقر الجميل المصفف بعناية، والمقصوص عل شكل "كاريه" لم يكن إلا باروكة موضوعة جانبًا، بينما كانت سحر تمزق شعرها وتصرخ. كانت شبه صلعاء. لم أكن أصدق ما أراه. "سحر"، التي شبهتها في المرة الأولى بالممثلة المصرية "نيلي" بكل مرحها وحركاتها الاستعراضية، كيف ظننت أني أعرفها بما يكفي؟ كيف لم أخمن أن وراء تلك الضحكات مجرة من الأحزان.

سرت نحوها كالواقعة تحت تأثير تنويم مغناطيسي، بالكاد كانت تحس بوجودي كانت تصرخ وتبكي وتردد عبارات غير متصلة وتضرب الحائط، بقبضه يدها، اقتربت منها وأنا أحاول التماسك، في

محاولة لتهدئتها، تمسكت بي، ملقية برأسها على كتفي وهي تبكي، فيما كنت أسألها بالحاح، ماذا يجري، ماذا هناك؟ لم تتكلم، لكنها أشارت إلى علبة الأدوية على الطاولة كي أعطيها إياها، كان نوعًا من الحبوب المهدئة مستهلكة حتى نصفها، بعد أن ابتلعت حبتين تمتمت في نشيج كئيب، ودموعها تملأ وجهها:

فاطمة، أنا حامل.

كانت المفاجأة الثانية بالنسبة لي، إذ أحسست أنني أتحرك في فيلم سينمائي وأن كل ما يدور حولي هو محض خيال لأحداث مكررة، مللت مشاهدتها. لم أتكلم، ابتلعني الصمت، بينما دخلت هي في حالة من حالات الهلوسة، والبكاء.

الأيام التالية كانت الأقسى بالنسبة لي، إذ كنت أجهل ما عليّ فعله سوى البقاء إلى جانبها للعناية الصحية بها، لم أفكر بأي نوع من الحلول، إذ لم أكن أعرف عن "سحر" إلا اسم القرية التي جاءت منها، وعلاقتها العاطفية مع "وائل"، ولفت انتباهي أن "وائل" لم يتصل بها طيلة فترة مرضها، لكني فضلت عدم سؤالها في ذاك الحين.

بعد أيام حين تحسنت حالتها قليلاً، قررت مغادرة البيت، عرضت عليها المرافقة، لكنها رفضت بإصرار، حينما عادت كانت في حالة منهارة تمامًا تشبه حالتها الأولى، لكن هذه المرة بدت أكثر

حدة وانفعالاً، كانت تهذي، وتكرر اسم "وائل" تضرب على بطنها، ثم تطلب الموت. ولم يكن أمامي حينها إلا إعطاؤها الحبوب المهدئة التي تناولتها في المرة السابقة.

قررت البحث عن رقم "وائل" في هاتفها المحمول. أخرجت الرقم من ذاكرة الهاتف، ثم قمت واتصلتُ به من هاتفي الخاص، وطلبت لقاءه حالاً.. أجابني بأنه سيلقاني لكن بعد ساعتين من الزمن في المكان نفسه الذي اعتدنا الجلوس فيه على كورنيش البحر.

ملامحه كانت معجونة بالتوتر والقلق، حاول مداراة انفعاله باختلاق حديث مفتعل عن الدراسة، وكلية الحقوق، وطرق النجاح وما فيها من محسوبيات. ثم قال وهو ينفث دخان سيجارته: هذا البلد لم يعد يحتمل، سأغادر فور أن أخذ التأشيرة بعدأسابيع..

– تغادر..؟!

كررت الكلمة بهلع، وكأنني أحسست أنني سأترك وحيدة مع سحر من دون أن أملك حلاً لمشكلتها.

قلت:

– جئت أكلمك بشأن "سحر".

ابتسم ابتسامة جانبية وهو يتمتم:

– إذن أخبرتك.

– لا لم تخبرني، بل عرفت من خلال حالتها الصحية.

ثم تابعت: سحر تقول إنك والد الطفل، وأنك تخليت عنها وهي في حالة سيئة جدًا الآن، إنها منهاره تمامًا.

اندفعت بالكلام والوصف، وكأني أرجوه المساعدة.

ارتفعت نبرة صوته وهو يقول:

– هذا غير صحيح، أنت تجهلين الكثير من الأمور، لقد ظللت إلى جانبها حتى اللحظات الأخيرة، لكن كفي، لم أعد أحتمل خداعًا.

قلت بسذاجة:

– خداع، عن أي خداع تتحدث؟ هي تحبك.

هدأت نبرة صوته قليلاً ثم قال:

فاطمة، استمعي إلي، لم أكن لأريد التحدث في هذا الأمر لكنك تجبرينني على ذلك، أنا كنت أعرف بمرض "سحر" العصبي الذي أصابها بعد تعرضها لحالة الاغتصاب منذ سنوات، ولتمسكي بها كنت آخذها إلى جلسات العلاج النفسي عند طبيب مختص، وبالفعل بدأت تتحسن وعاد شعرها لينمو من جديد، ثم توطدت علاقتنا وكانت تتردد على في بيتي، واتفقنا على الزواج، ولم أكن لأتراجع أبدًا، إلى أن صار بعض الأصدقاء يذكر أمامي أنها على علاقة مع شخص آخر، وبالفعل بدأت ألاحظ منها بعض التصرفات الغريبة، وكانت قد صارحتني بموضوع الحمل قبل ذلك بأيام. حين واجهتها بما سمعت مع تأكدي أنني رأيتها برفقته لم تنكر، بل

صرحت لي أنها على علاقة كاملة معه، حينها جننت وطردتها من منزلي، اليوم عادت وأتت إلى تطلب إيجاد حل لمشكلة الحمل، طلبت منها أن تؤكد لي إن كان ابني أم لا، فأجابت بأنها "لا تعرف"، صرخت في وجهها وطلبت منها الذهاب.

بانت في عينيه أثر الهزيمة والحزن ووجدته يكرر كلماته قائلاً:

– فاطمة، لو أنها تؤكد لي أن هذا الطفل هو ابني، أنا مستعد لمسامحتها، فاطمة هل تعرفين أي شيء آخر؟

كانت الأحداث السابقة تتوافد إلى مخيلتي، وكلماته أصابتني بحالة من الذهول التام، دفعتني للتأكد من أني لا أعرف أي شيء، ثم تركته ورحت أسير لمدة ساعة من الزمن حتى أحسست بالإنهاك فعدت إلى المنزل.

لم أجد "سحر"، كان باب غرفتها مفتوحا، وهاتفها متروك على الطاولة، اتصلت "بوائل" وأخبرته، فأجابني أنها من الممكن أن تكون غادرت إلى الضيعة، وسيتصل بي في حال معرفته مكانها.

بعد مرور ثلاثة أسابيع عادت سحر إلى المنزل، لتأخذ شيئا من أغراضها، بدت لي مختلفة تمامًا، وكأنها شخص آخر قادم من عالم الأشباح، شاحبة، ناحلة يبدو عليها المرض، قاتمة منهكة، حاولت سؤالها عن أيام غيابها، عن حالتها الصحية، لكنها لم ترغب بالتجاوب معي، وظلت جملها مقتضبة وغير موصولة، أحيانًا تضحك

بشكل هستيري وهي تدخن، وتؤكد لي بأن علاقتها مع ابن النائب الذي سيأتي لينقلها بسيارته الآن سوف تنتهي بالزواج، ثم تعود للحديث عن "وائل" بأنه خسرها للأبد وأنها لا تفكر بالعودة إليه. كانت هذه هي المرة قبل الأخيرة التي رأيتها فيها لكن قدومها في مثل هذه الزيارات الخاطفة تكرر أكثر من مرة إلى أن طلبت منها صاحبة الشقة مغادرة الغرفة تمامًا.

المرة الأخيرة التي رأيتها فيها، كانت بعد ذلك بأعوام، بعدأن تخرجت وبدأت في التدريب في مكتب أحد المحامين المعروفين، كان ذلك لدى عبوري "شارع الحمرا" مساء برفقة أحد الأصدقاء، كانت تقف إلى جانب مقهى "ومبي" مع شاب أجنبي، ممسكة بيدها زجاجة بيرة، وترتدي بنطالاً شفافاً يلتصق بجسدها، وبلوزة قصيرة تكشف عن بطنها.

رغم تغير ملامحها استطعت تمييزها، لكنني تابعت طريقي وإحساس حاد بالحزن والرثاء يملأ داخلي. وكلما كنت أذكر "سحر" تعود إلى ذاكرتي صورتها الأخيرة في الشارع، وأتساءل "أين الحقيقية"؟ من كان كاذبًا أو من كان صادقًا؟ من الذي ظلم؟ لكن رغم ذلك لم أستطع العثور على إجابه.

إلى أن جاءني اتصالها الغريب في تلك الليلة، تطلب مني النجدة ودون سؤالها عن أي شيء كنت قد وعدتها بالمساعدة. لكن

بعد أن وضعت سماعة الهاتف، وبعد أن برد صوتها في داخلي، عاد إلى التردد والخوف من لقائها، من وجودي معها، من تلويث اسمي وسمعتي، في المرة الثانية تجاهلت هاتفها، وفي صباح اليوم التالى أبصرت صورتها في الجريدة في حادثة قتل غامضة مشبوهة، جاء في الخبر، بأن أجهزة الأمن لم تستطع التعرف على صاحبة الجثة ترى ماذا كانت تريد إخباري؟ لابد أنها كانت تسعى لإيصال أية معلومة من خلالي، لكن كيف كنت سأساعدها كيف؟!

٢٠٠٣/١/٤

الكنار مازال يغرد

استيقظت عقب أذان الفجر لتكمل أعمالها، العيد سيحل بعد يومين عليها أن تنظف جميع حجرات الفيلا وأن تجمع الستائر لتغسلها وتعلقها من جديد أيضاً، يجب أن تشارك سيدتها في صناعة الكعك. ارتفع صوت فوزية الخادمة الكبيرة، تنادي عليها بكلماتها المعتادة:

– موحا، يا كسولة، أما زلت نائمة وأنا بدأت العمل، قومي نظفي الجنينة، ورشي الماء على الزرع، واجمعي الأوراق الذابلة.

الطقس بارد في الخارج والهواء محمل بالمطر والرياح، عندما قامت موحا إلى الحمام بشعرها المنكوش وثيابها القطنية الخفيفة، لم تغسل وجهها بل أخذت "الدلو" المخصص للجنينة فملأته بالماء، وحملته مع المقشة ومقص العشب.

كانت تسير ببطء لا يتلاءم مع سنواتها الثلاثة عشرة تجر معها آلام الروماتيزم الذي بدأ ينخر عظامها باكراً، هناك وجع آخر في أسفل بطنها جعلها تتلوى وتضغط أحشاءها إلى الداخل، لكنها لا

تجرؤ على الكلام أبداً. عليها أن تنتهي من تنظيف الجنينة كي تغسل سيارة ابن سيدها لقد أوصاها بغسلها البارحة حينما رجع متأخراً ليلة أمس.

كانت تغسل الصحون، وتضع الصابون على أرضية المطبخ كي تشطفه، فتح الباب بمفتاحه ودخل، جميع أفراد العائلة ناموا، السيدة الكبيرة تدخل إلى سريرها في العاشرة مساء، وقد سمعت "موحا" أنها تفعل ذلك كي تحافظ على نضارة وجهها. أما أختاها "سارة وسلمى" فقد استسلمتا للنوم باكراً بعد أن طافتا طيلة النهار على المحلات لاستكمال الحاجات الخاصة بزفاف سارة.

تقدم ابن سيدها إلى المطبخ، داس بقدميه الموحلتين على البلاط الغارق بالماء والصابون فظهرت بقعة بنية اللون من الوحل، فتح الثلاجة أخذ زجاجة من البيرة وهو ينظر إلى موحا ويقول:

– ألم تنتهي من عملك بعد يا عرجاء. أجابته بخوف.

– لا يا سيدي بعد قليل سأنتهي.

اقترب منها، أمسكها من ذراعها، ويده الأخرى تقرص صدرها، ثم راح يتفوه بكلماته التي حفظتها موحا دون أن تدرك مغزاها:

– انتهي من عملك يا وسخة، قذرة كوالدتك التي تركتك على باب الكنيسة.

رددت موحا كلماتها جملتها الوحيدة.

– حاضر يا سيدي أمرك.

– هيا انتهي، عليك أن تغسلي سيارتي صباحاً، يجب أن تكون نظيفة قبل طلوع الصبح.

– تمتمت.

– أمرك.

برد الليل كان ينخر عظم ساقيها، وقدماها سابحتان في الماء البارد الذي يملأ الأرضية انتهت من غسل الصحون، ثم بدأت تجفف الأرضية. حينما أتمت عملها، سارت إلى غرفة الخدم التي تقطنها مع "فوزية" "وهند" عبرت الممر المعتم لتصل إلى الحجرة الكئيبة استوقفتها يد قاسية، أمسك بها من شعرها وهو يقول:

– انتهيت إذن، هيا إلى حجرتي لتمسحي أحذيتي.

سارت وراءه خائفة بلا أية كلمة سوى "أمرك سيدي" حينما دخلا، أغلق الباب وراءه ودفعها إلى السرير أبعد سروالها القطني المتسخ، نزع رداءها الداخلي ثم أولج عضوه فيها بسرعة ولم تستطع الصراخ، لأنها خافت أن يضربها وأن يستيقظ كل من في البيت. قام عنها وهو يصيح – هيا اخرجي من هنا.

ذهبت إلى حجره الخدم، ألقت جسدها على الفراش الصغير، لم تذهب إلى الحمام للاغتسال ولم تبصر نقط الدم الحمراء التي صبغت سروالها الداخلي.

صباحاً وهي تنظف الجنينة، شلتها الآلام الحادة أسفل بطنها، ودفعها السائل الساخن لترك الدلو والمكنسة والذهاب إلى الحمام لإزالته، بقع من الدماء كانت تلوث ملابسها لم تدر سببها، هل الجرح الذي سببه لها سيدها البارحة؟

استمرت الدماء لعدة أيام وموحا تفكر أن تحكي للخادمة الكبيرة لكنها خشيت أن يضربها ابن سيدها، إن تفوهت بالأمر كانت تسرق أوراق الجرائد التي يرميها سيدها والمناديل الورقية الموضوعة في الصالون، كي تحشي بها سروالها الداخلي لمنع تسلل الدماء.

موحا لا تعرف من هو أبوها؟، ومن هي وأمها، كل ما تذكره عن طفولتها، أنها كانت عند امرأة من نساء القرية، سمعت أنها أخذتها من خوري الكنيسة لتربيها مع أولادها، لكن بعد أن مات زوجها صارت "موحا" عبئاً عليها، فنصحها الجيران أن تضعها عند إحدى العائلات الثرية في المدينة كي تتخلص من إعالتها، إذ لم تكن تلك المرأة تملك النقود لتربي أولادها، فمن أين لها تربية فتاة وجدت على باب الكنيسة، تذكر "موحا" أنها كانت في السادسة أو السابعة عندما جاءت أول مرة إلى بيت "سيدها"، وأن تلك المرأة التي ربتها حتى هذا العمر احتضنتها للمرة الأخيرة وهي تبكي وتقول: "ما كنت لأتركك"، يومها سحبتها الخادمة فوزية من يدها إلى داخل غرفة الخدم، وألقت في يد المرأة بعض الورقات المالية.

منذ ذاك اليوم صارت موحا متخصصة لخدمة بنات سيدها، وفي حال غيابهن تنزل إلى المطبخ لتتعلم سائر الأعمال المنزلية.

جميع من في المنزل كان يعامل موحا على أنها حشرة بلا فائدة، ما عدا سيدتها "سلمى" لم تكن لتكبرها إلا بسنتين، لذا كانت تعطف عليها في بداية قدومها إلى المنزل، كانت تحدثها عن مدرستها والأساتذة والمعلمات، ومرة فكرت في تعليمها القراءة واستطاعت موحا أن تميز الأحرف وتكتب اسمها، لكن حينما لاحظت الأخت الكبرى تعلق سلمى بموحا، مُنعت موحا من التخصص في خدمة الفتاتين، وانتقل عملها إلى المطبخ لكنها لا تدري لماذا ابن سيدها دائماً ويصر أن يكيل لها السباب والشتائم، منذ قدومها في اليوم الأول إلى البيت، تذكر يومها أنها رأته يأخذ النقود من حقيبة أمة، وحين اتهمت الأم الخادمة الصغيرة، صرخت موحا بأنها شاهدت ذاك الشاب يفتح الحقيبة ويأخذ النقود، ولم تكن لتعرف أنه الابن الأكبر.

موحا تدرك أنها تعيش لتخدم كل من في البيت، وكل ما تتمناه أن يمر نهارها من دون أن يضربها أحد، أو تعاقب وتنام في القبو المعتم، لذا تحولت مع الأيام إلى كائن صامت، لا يشكو أبداً ولا

يتكلم، إنها لا تتحدث إلا مع "الكنار" الصغير الذي اشترته "سلمى" تحكي له في الصباح عما ينتظرها من عمل، وتطلب منه أن يغرد لسيدتها "سلمى" ويخبرها أن موحا تحبها كثيراً.

عندما كانت في التاسعة من عمرها وقعت عن السلم الخشبي حين كانت تغسل الشباك الزجاجي، وأدى ذلك لحدوث عرج طفيف في ساقها اليسرى، بسبب تأخرها في العلاج، وإهمالها للتمزق الذي طال الأنسجة، ولم ينتبه أحد إلى حالتها إلا بعد ذلك بأيام حين تضخمت القدم وصارت موحا عاجزة عن السير، وبعد تلك الحادثة صار "ابن سيدها" يضيف إلى شتائمه السابقة كلمة "العرجاء".

في هذا الصباح الذي داهمتها فيه آلام أسفل البطن، بعد ذاك الجرح الذي سببه لها "ابن سيدها" استدعتها سيدتها "سلمى" كانت موحا توشك على إخبارها عن الدماء التي تسيل من داخلها لكنها صمتت وخافت أن تدخل "سارة" إلى الغرفة وتلمحهما يتكلمان معاً، فيؤدي ذلك إلى عقابها بالمبيت في القبو. طلبت منها "سلمى" أن تأخذ الكنار وتذهب به إلى صديقتها "اسمهان" التي تسكن في الشارع المقابل، لأنها قررت أن تستبدل الكنار "بطيور الحب" الملونة.

أحست موحا بغصة شديدة حينما أدركت أنها ستفارق الكنار، وكادت تقول: "اتركيه لي". لكن من أين لها الحق بالكلام؟

حملت موحا القفص الذي يسكن فيه الكنار الصغير، وخرجت من الفيلا، لتسير إلى بيت أسمهان، كانت حزينة، دموعها تسيل بغزارة، والطريق الأسفلتي البارد يشعرها بالتزحلق وهي تسير عليه.

عبرت من أمامها سيارة مسرعة، دفعتها أرضاً، ورشقت كل ثيابها بالمياه الموحلة، القفص الصغير لم يعد في يدها، حاولت القيام بعد أن تجاوزها السائق بلا اهتمام لكن ساقيها لم تطاوعنها على الحركة، أرادت الصراخ، صوتها أيضاً بدا مخنوقاً، نظرت إلى الرصيف، كان قفص الكنار مقلوباً، لكنه بعيدا عنها، لم تستطع أن تميز إن كان الطائر في داخله أم لا.

أحست بيد صغيرة ترفعها عن الأرض، إنه صبي في مثل سنها تقريباً، ساعدها على الوقوف، وهو يقول مشيراً إلى أحد الدكاكين تعالى لتنظيف ثيابك، دكان أبي هنا، كانت تنظر إليه يخوف، وتردد، ثم صرخت.

الكنار الكنار..

سارت نحو القفص وسار الصبي معها بسرعة، هتفت بفرح وهي ترفع القفص الخشبي الكنار مازال حياً، مازال حياً، حينها نظرت إلى وجه الصبي، بدأ لها حلو الملامح، سألته من أنت؟

قال: – أنا كريم ابن صاحب الدكان، تعالى لتغسلي يديك عندنا، أبي رجل طيب. رافقته موحا وهي تمسك القفص بفرح،

استقبلها الرجل بابتسامة وهو يطلب منها أن تدخل إلى الحمام لتغسل يديها وتمسح الوحل عن ثيابها، ثم علق بأنه شاهد السيارة وهي تتجاوزها باندفاع وتوقعها على الأرض.

حينما خرجت من الحمام قال لها الصبي الصغير:

– ما اسمك؟

– موحا

– وماذا يعني موحا؟

سألها وهو يبتسم ويرفع صوته سائلاً أبيه:

– بابا تقول إن اسمها موحا، ماذا يعني "موحا"؟ خجل الأب لعدم معرفته الأجابة فقال، أسأل معلميك.

كانت موحا تمسك القفص وتستعد للابتعاد، وكريم يقول لها: غداً سأسأل المعلمة عن معنى اسمك، عودي مرة أخرى لأخبرك بالإجابة، ابتسمت له وهي تقول: سأعود "إن استطعت ذلك".

سارت وهي تضم القفص إلى صدرها لتتابع نحو بيت أسمهان وهي تفكر: ماذا تعني موحا؟.

٢٠٠٢/٢١/٣٠

ضريح لرماد الذاكرة

ما الفرق بين الحب والرغبة؟ من أين يأتي الحب وإلى أين تذهب الرغبة؟ وكيف يلتقيان في آخر الطريق ليلتحما معاً ككتلة نار تشعل فتيل النشوة في لحظة واحدة، ويصل الحب إلى ذروته، وتتقد الرغبة؟

هل هذا ما ظننته حين رأيت "سونيا"؟ كيف توهمت الحصول على متعة الحب والنشوة وأنا أبحث عن مسرة ليلة عابرة؟

– كيف السبيل إلى النسيان؟

"عطش الجسد أقسى من عطش الروح".

قالها هاشم وهو يناولني أوراقاً كتب عليها قصيدته الجديدة.. ثم استطرد: . لقد انسحبت من الحياة يا صديقي، وتعيش داخل فقاعة اسمها "إيمان".

– أريد نسيانها بأي شكل.

– دع جسدك يعيش عبثه، الحق ما بقي من شبابك، لقد تجاوزت الثلاثين بسنوات أليس كذلك؟ لمع بريق خفي في عيني هاشم وهو يصب كأسين، هتف بمرح.

– ما رأيك في سهرة حلوة؟ سأرفك بـ"سونيا"، امرأة مذهلة في خرابتها مع الرجال، طويلة، ممتلئة، شقراء تحس معها كما لو أنك أمام قبيلة من النساء.

قام هاشم، وأمسك كأسه تجرعه بسرعة، ثم ارتدى قميصه وهو يقول لي:

– إياك أن تغادر، سأعود بعد أقل من ساعة.

أيقنت أنني لم أعرف الرجل قبل لقائي به، وحين جاء صديقه كنت أقف في بهو الفندق الكبير مع سوزان وفتيات أخريات. عرفته سوزان بي قائلة: "هذه سونيا ستعجبك كثيراً".

قال: "لا، ليست لي، بل لرجل كئيب حزين، مازال يبكي حبيبته التي غابت منذ سبعة أعوام:، نظر إليّ لثوانٍ.. تأملني وهو يقول:

– أريدك أن تنسيه همومه.

مالت عليه سوزان بدلال، ألصقت كتفها بكتفه، وراحت تهمس بأذنه كلاماً، لابد أنها كانت تتفق معه على السعر وتصف مزاياها الكثيرة. قال لها:

– لن نختلف، المهم أن تعجبه.

سرت معه، وكأن الكلام لم يكن عني، وقبل أن نبتعد قالت له بصوت مسموع: صوتها عذب، وهي بارعة جداً في الرقص لا تنس أن تخبر صديقك، كما أنها تتقن الغناء بالفرنسية.

حين دخل هاشم برقتها، كانت الأضواء الخافتة في الصالون لا تكشف ملامحها كثيراً، وهي تضع على رأسها قبعة شتائية تخفي معالم وجهها الرائع.. أحسست أنها ليست المرأة المقصودة التي تحدث عنها هاشم. بعد أن خلعت المعطف والقبعة أيقنت أن ضباب النسيان المتصاعد مع شحوب الضوء الخافت لا يمكن أن يجعلني أغفل ذاك الشبه الواضح بينهما.

سحبني الذهول إلى الذاكرة، تكاد تكون هي قبل سبع سنوات حين ودعتها في المرة الأخيرة.. هل الزمن توقف عند لقائنا الأخير؟

لكن هذه الفتاة صغيرة، بالكاد تجاوزت العشرين بعام أو عامين، لها الملامح نفسها، الشعر الكستنائي المائل إلى الأصفر، العينان العسليتان اللتان يمتزج لونها مع الأخضر، حتى تسريحة شعرها، هي تسريحة شعر الأميرة ديانا.

ها هي ليلة المسرات تنقلب لليلة احتفاء بالماضي.

أصعب الأحساسيس وجعاً غياب امرأة دون أن تشبع منها.. امرأة تغيب عن العالم بلا أية إشارة حياة أو موت تدل عليها.

في يوم ما.. كاد عطش غيابها يقتلني، سبع سنوات مرت وأنا أبحث كالمخبول عن امرأة غابت في المجهول، امرأة ما عادت موجودة، أو ربما ما عادت لي.

بعد عودتي من الحرب.. سألت عنها، ما بيننا كان قوياً راسخاً كرأس النخلة، قالت لي وأنا أودعها: "عد ستجدني هنا، لا يمكنني أن أتخلص منك إلا بأن أحبك طوال حياتي:. هذه كانت آخر كلماتها، آخر صورة تحملها العين، ويذكرها الفراق.

قالوا لي حين عدت للسؤال عنها: إن بيت أسرتها تهدم، وإنها نجت برفقة أخيها وهاجرا إلى بلد أوروبي. وقالوا إنها تزوجت من ثري عربي وتعيش في بلدة. وقالوا إنها جنت بعد موت والديها وحريق منزلها، وصارت تجوب الطرقات كالمخبولة. قالوا لي الكثير عنها، وكلما طفت وسافرت وسألت وجدت حكاية جديدة.

ذات مرة أقسم لي أحد الأشخاص بأنها تزوجت من رجل مهم في الدولة، وأنها تسكن معه في العاصمة. صدقته وبحثت عن عنوانها، وصرت أطوف حول أسوار القصر أنتظر خروج سيدته، حتى رأيتها. كدت أصرخ باسمها كانت تحمل الملامح نفسها لكن حين التفتت بدا أنفها أكثر طولاً، فسقطت مغشياً على من الحزن، وألقي بي في السجن بتهمة محاولة التسلل إلى القصر.

رويداً رويداً.. لم يبق منها في داخلي إلا إحساس بلوعة الفقد. في العام الأخير من بحثي عنها أيقنت يأسي من العثور عليها، لكن حرقة السؤال عن مكانها ظلت تكويني، ليتها ماتت. ليتني وجدت

شاهداً يدل على رفاتها خير من أن أحمل جثة ذاكرتها طيلة أيام العمر.

إن غابت الصورة، لا تغيب الذاكرة، إذ ليس بمقدور الجسد أن ينفلت من رائحة الوجع، من الذي غاب، ومن الذي حضر؟

كيف بمقدوري أن أصحب هذه المرأة إلى السرير كي أنسى وكل مسامة منها توقد ذاكرتي لهباً؟!

أرتفع صوت هاشم يناديها كي تدير جهاز التسجيل ليشاهد براعتها في الرقص. حينها ضحكت بمسرة وكأنها ستقوم بعمل تحبه، حملت حقيبتها وقامت إلى الداخل، ثم عادت بعد قليل وهي ترتدي غلالة نوم شفافة من اللون الأبيض، بدأت تتمايل بخفة ودلال، لم يكن في حركاتها شيء من المجون، كان فيه كثير من الإثارة.

اقترب هاشم مني وهو يقول: –

سونيا ستعجبك كثيراً، سوزان نصحتني بها، سأتركك الآن.

لن أوصيك بها.

قال لها ذلك وهو يغلق الباب.

في عينيه كثير من الحزن. كان ينظر إلى بصمت يبدو عليه كمن فقد عزيزاً. عرفت وأنا أنظر إلى وجهه وجسده حين تأملني وأنا أرقص، أن ما وصفه به صديقه ليس إلا جزءاً من الحقيقة.

– هيا بنا.

قلتها لها وأنا أمسكه من يده وأقوده إلى الداخل.

كان يتأملني بصمت، حين صرنا في الغرفة، جلس على حافة السرير، رحت أنزع ثيابي ببطء، لكنه ظل يتأملني، أحسست برعشة غريبة. كيف تتحرك الرغبة وهي تحز بعمق جرحاً في الذاكرة؟

هل كان على أن أمسك "سونيا" في سريري وكأنني أمسك حبيبتي الغائبة؟!.. أم كان على أن أصرخ في وجهها لتبتعد عن أوجاعي؟! وكيف أنكر رغبتي العارمة للاحتراف معها ولو للحظات؟ اندست إلى جانبها، رحبت أقبلها في كل أنحاء جسدها، حتى وصلت إلى أنامل قدميها.. كانت مستسلمة لكنها باردة كالصقيع، تصدر عنها أنات متشابهة، وتأوهات مزيفة، كأنها تصدر عن آلة، عن دمية على شكل امرأة. هنا على جسد هذه المرأة سيكون ضريح ذاكرتي، سأتخلص من جثة حبيبتي التي حملتها داخلي طيلة هذه الأعوام.

اقتربت منها، أدخلت رأسها في صدري، تحسست خصرها ضممتها إلي، فيما يدي الأخرى تتلمس ظهرها وكتفيها، وشفتاي تنزلقان بشبق محموم على شفتيها وعنقها.

أحسست بقوتي، وبهشاشة ذاك الجسد الذى صار يتحول فجأة إلى واحة، فيما دفء شارد ينبعث منه مع أنات بإيقاع منفرد.

كانت أصابعه تتلمسني، كما لو أنني شيء ثمين. كثير من الدفء والرقة. ماذا يريد هذا الرجل؟ لقد استطاع أن يجردني من آليتي، واستطعت أن أكون له ولنفسي ولو لدقائق معدودة أدركت بحدس الأنثى أن هذا الجسد الرجولي يبحث عن شيء آخر، يختلف عن متعة عابرة.

توجست خشية من ذاك الإحساس الذي انتابني بين أحضانه.

هل عليّ أن ألقاه لمرة ثانية.. ثالثة.. رابعة... أم أكتفي بلحظاتي الحلوة معه، بين هذه الكم من العلقم؟

قمت من جانبه.. طلب مني البقاء، عرض على مبلغاً كبيراً من المال، أصررت على الذهاب، من غير أن أدري دافعاً لإصراري.

– على أن أغادر الآن.

قالتها وهي تحاول القيام من جانبي. شددتها إلى في محاولة لإبقاء رأسها على صدري.. تكومت في أحضاني لثوان، رفعت رأسها لتواجهني بنظراتها وهي تغرس عينيها قائلة:

– هذا لا ينفع، عليّ أن أذهب الآن، سوزان لن تسمح لي بالتأخر أكثر من ذلك. أحسست بصقيع داخلي مفاجئ تمتمت:

– كم تريدين للبقاء؟

أجابتني بحسم:

– لا، عليّ الذهاب الآن.

صفعت الباب وراءها وخرجت بعد أن ارتدت معطفاً وقبعتها التي تخفي ملامحها.

عدت إلى الداخل، جلست على السرير في العتمة والفراغ، وأنا، أتساءل: "من التي كانت هنا"؟ لم لم أستبقها؟ لم عاملتها كمأجورة وأنا أطلب منها البقاء؟

لم لم أخبرها بأنني بحثت عن معشوقتي طويلاً، وأنني وجدتها هي، وأريدها معي لي وحدي؟

حين عاد هاشم سألني عنها وهو يغمر بعين واحدة. لم أعلق على عباراته، ابتسمت بشحوب، وأنا أوشك أن أساله كي يدلني على مكانها أو رقم هاتفها.

وفي اليوم التالي.. سألته عنها، فعاد ومعه سوزان وهو يعدني بليلة لا تنسى. وحين صرخت وقت أنني أريد سونيا لا غيرها. علقت سوزان وهي تضحك بمجون قائلة:

– انتظرها ستعود بعد عشرة أيام من رحلة عمل.

صعود المطر

الطابق العلوي في مقهى "ومبي" خال إلا من ذكرياتي، وأنا أنتظرك، المطر ينهمر في الخارج، يندمج مع قدوم المساء أتامل صعوده إلى أرواح البشر الذين ينتظرون هطوله السخي، وصوت فيروز يرتفع من الطابق السفلي:

"لما على الباب يا حبيبي منتودع:

"بيكون الضوء بعدة شي عم يطلع"

"بين كل حزن وحزن هنا أفرح مؤجلة"

هذا ما كنت تقوله لي دائماً، في دعوة منك كي أهب نفسي للفرح: "مثلك لا يجب أن يحزن، زقزقة ضحكاتك تهبني عمراً من الأفراح، فلا تحزني".

كيف يمكنني إبلاغك بأنه لم تصلني أية دعوة للفرح بعد غيابك، ولم أجد من يكترث لضحكاتي أو أحزاني؟ كنت أول رجل عرفه جسدي، وآخر رجل ستنساه روحي.

فهل على الوثوق بالتواريخ، والأيام والأرقام، والسنوات التي تقول إنه مضى على فراقنا سبع سنوات؟

سبع سنوات من عمر الغربة، والألم. فكم امرأة عرفت بعدي؟ كم فتاة أحبتك؟ وكم من الذكريات أحرقت؟

منذ غياب في رحلة هروب إلى الوراء، وأنا أوقد شموع الوهم لأبحث عن ملامحك في وجه كل عابر، فلا أجد إلا شبهاً مخادعاً، يلتبس على أن يحاكي جنونك.

بالله عليك، بأي أعواد ثقاب استطعت أن تحرق أيامي معك؟ لتترك خلفك جمرات حنين، خبت نارها لتغدو رماداً مصفراً لأوراق كتبت عليها يوماً قصائد حملت اسمك، الآن أنا ما عدت أنا.. وأنت ما عدت أنت.. لكن ماذا غدونا، بعد أن غادرنا تلك المدينة، التائهة، الحزينة؟ كيف تبرأنا من كم ذكرياتنا في تلك الشوارع التي أودعتنا أحزانها، لنتركها، ونمضي لاهثين وراء ذواتنا التي لم تتحقق.

كيف أنت؟

سأسالك بعد كل هذا العمر، وأنا أخمن إجابتك: "مازلت الرجل الغريب الذي يتكئ على سنديانة أوهامه".

لماذا افترقنا؟ لأني أردت أن أكون كأمي وجدتي، وآلاف النساء غيرهن، أم لأنك ضننت عليّ بحريتك، أم ليقينك بأن الزواج أقصر الطرق لانتحار الحب؟

حتى اليوم، يأتي قلبي الوثوق بقناعاتك التي حاولت أن تلغمني بها، فلماذا قررت التخلي عني بلا حزن؟

ولماذا اخترت حبك بلا تردد؟

حين جاءني صوتك على الهاتف، بعد سبعة أعوام من فراقنا، سقط قلبي توجساً حين قلت" ألو"، ثم انقطع الخط لم أحتج لأية كلمة أخرى لأميز نبراتك، بانت على وجهي معالمك، وأنا أجلس مع تلك الصديقة التي سألتني.

– ما بك؟

تمتمت:

– إنه هو

– من؟

رددت حروف اسمك بتقطع، لتسألني هي:

– أمازال يؤثر فيك حتى الآن؟

كانت قصتك في جعبتها حكاية كغيرها من الحكايات المتبادلة بين الصديقات، لكن لم أتخيل، أنها ستستأذنني يوماً كي تحبك، أنا التي بحت لها بكل ذاكرتك، وأسرارك، خباياك،ونوع قوتك،لون ملابسك وأوقات حزنك، وأنا التي وضعت عنوان هذيانك، شوارع ضحكاتك، وأماكن أوهامك.

قالت لي عقب الاتصال الهاتفي المقطوع.

– انتهي من حالة المراهقة المتأخرة التي تعيشها، اطوي صفحته نهائياً، قصتكما انتهت منذ سنوات، عديني بألا تلتقي بها.

قلت

– أعدك.

لم تكن تدري أنها تطلب مني أن أبتر جزءاً من ذاكرتي وأتبرأ من أيامي معك.

حين خرجت من منزلها، رحت أسير في شارع "الحمرا"، أبحث في ذاكرتي عن مكان مناسب، أجلس فيه بلا تعب.

ارتفع رنين هاتفي من جديد، كنت أنت.

– أريد أن أراك.

– وأنا أيضاً.

كانت إجابتي عفوية تماماً، خالية من مشاركات العقل ووعوده. كان من المفترض أن أسألك: متى وصلت؟ ومنذ متى أنت هنا؟ وكم ستبقى؟

لكن كأن الزمن لم يفرقنا أبداً.

قلت:

– أنا موجود في "شارع الحمرا" وأنت؟

بلا تردد أجبتك:

– في مقهى "ومبي".

كلانا إذن كان يتحرك في المكان نفسه، في ذات الدوائر التي طوقت ذاكرتنا يوماً.

– انتظريني سآتي إليك خلال نصف ساعة.

بعد قليل من الوقت ستأتي إلى هنا، لتجلس قبالتي على الكرسي، لتنتهي مع قدومك تساؤلنى عم حملته معي طيلة هذه الأعوام. قبل سفرك، وبعد مضي شهر على انقطاع علاقتنا، التقينا صدفة قرب سينما الساورلا، أحسست بالارتباك حين رأيتك، لكنك لكمتني بهدوء، بعد أن صافحتني مبقياً يدي في يدك!

– أستعد للسفر، أتممت أوراقي، وأخذت التأشيرة، ربما أسافر مطلع الأسبوع المقبل.

ظننتك تمزح في البداية، وظننت الأمر مجرد حيلة صغيرة. أجبتك بلا مبالاة:

– أتمنى لك التوفيق.

ولم أسالك إلى أين؟ أو لم؟ أو متى ستعود؟

في صباح اليوم التالي، اتصلت بي، واتفقنا على اللقاء عصراً.

ذهبت إلى منزلك، فتحت لي الباب، ثم ضمتني إلى صدرك لثوان، وأنت تتكئ إلى جدران الفراق.

كل ما في المنزل، يؤكد سفرك، الحقائب، الملابس المبعثرة، الكتب الموزعة هنا وهناك، رغم ذلك لم أصدق وظننها رحلة ستطول لعدة أشهر.

تماسكت، ودعتك بهدوء كأي صديقين، ولم نتطرق لأية تفاصيل، أو ذكريات، كلانا كان يجتث أحلامه.

رحت تحكي عن ظروفه، البلد السيئة، عن لزوم السفر، وضرورة الغياب من أجل شيء ما يبقي في النتيجة.

ما الذي سيبقى؟ كدت يومها أسالك لكني لم أتكلم واكتفيت بالاستماع لك، إذ بعد عام من الحب كنت أظن أني أعز عليك من فراق بلا موعد، وهجر لم تبرر جنوحك إليه سوى بأنك أحترمت رغبتي في وضع حد لعلاقتنا، ولم تكلف نفسك عناء البحث عن حلول بديلة للفراق.

بعد كل هذه الأعوام، أدرك الآن أنك لم تختر القرار، لأنك لا تريد التورط في دخول هالة الواقع ربما كنت تريدني معك، لكنك تريدني كوهج وهمي يظهر ويغيب في وهن من غير حاجة إلى أن يصطدم بالحياة.

غادرت منزلك، وأنا أكاد أهذي شكا، لإحساسي بأن كل ما يدور هو محض أوهامي، وأن غيابك ليس إلا وقوداً سيشعل فتيل عواطفنا أكثر.

صوتك بعد الغياب كنت أحسه محملاً بريح السموم، كهواء تلك البلاد التي سافرت إليها. بعد أشهر قليلة تباعدت اتصالاتك لتذيل أيامي في ذاكرتك رويداً، رويداً إلى أن ماتت في غضون عام.

وأنا ماذا حل بي؟ ربما ستسألني هذا السؤال حين تصل؟!

لقد سرت بأحلامي إلى زواج مستدير الملامح، مكرر النتائج، باهت في تفاصيله، وقاتم في نهايته.

المطر مازال ينهمر، أتامل المارة وأنتظر أن ألمحك بينهم وفي داخلي ينبثق مطلع "أنشودة المطر"، قصيدة "السياب" إلى كنا نرددها معاً:

"عيناك غابتا نخيل ساعة السحر وشرفتا راح ينأى عنهما القمر".

لماذا أنتظرك؟ ماذا أريد القول لك؟

لابد أنك تأخرت كثيراً. لا أدري كم مر من الزمن. أحس أنه على مغادرة المكان قبل أن ينزل المساء أكثر، ويشتد صعود المطر.

٣٠٠٢/٥/٦

فهرس المجموعة

ثلاث ساعات قبل الرحيل ٥

امرأتان ١٩

المعبر ٢٩

الهارب ٣٩

مرايا مكسورة ٤٥

امرأة فاضلة ٥٥

سفر ٦٥

حب شرقي ٧١

صورة مشروخة ٧٩

الكنار مازال يغرد ٩١

ضريح لرماد الذاكرة ١٠١

صعود المطر ١١١